

# أَجِبْ النَّفْسَ

للإمام أبي عبد الله محمد بن علي الحكيم النعماني

تحقيق وتعليق  
دكتور أحمد عبد الرحمن الساج

طبعة الأولى

0123363



Bibliotheca Alexandrina

مكتبة الإسكندرية





جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة  
الطبعة الأولى  
١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م



طباعة • نشر • توزيع

١٦ شارع عبدالحال لروت - تلغراف ٣٩٢٣٥٢٥ - ٣٩٣٦٧٤٣ - لاس. ٣٩٠٩٦١٨ - برقياً: دار خاندو - ص ب: ٢٠٢٢ - القاهرة

AL-DAR AL-MASRIYAH AL-LUBNANIAH

PRINTING — PUBLISHING — DISTRIBUTION

16 ABD EL KHALEK SARWAT St, P.O.Box 2022-Cairo-Egypt PHONE: 3936743-3923525 FAX: 3909618 CABLE DARSHADO

# أَجِبْ النَّفْسَ

لِلْإِمَامِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدَ بْنَ عَلِيٍّ الْحَكِيمِ النُّرْمَنِي  
الْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٣٢٠ هـ

تَحْقِيقٌ وَقَلِيقٌ  
الدُّكْتُورُ  
أَحْمَدُ عَبْدِ الرَّحِيمِ السَّالِحُ

الْمُنَاشَرُ  
لَهُ فِي الْمَقَرَّةِ رِبِّيَّةُ الْبَنَانِيَّةِ

بسم الله الرحمن الرحيم

## بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى : ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّيْنَاهَا \* فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا  
وَتَقْوَاهَا \* قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا \* وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴾ .

[ سورة الشمس - الآيات من ٧ - ١٠ ]







## المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، دعا الناس إلى تهذيب النفس ، وإصلاح شأنها ، والصلاة والسلام على رسولنا الصادق الأمين الذى نصح الأمة ، وعلمها مكارم الأخلاق . وبعد .

فإن الحافظ والمحدث الإمام الحكيم الترمذى كان من علماء الأمة الذين نبهوا إلى أدب النفس ، والعروج بها إلى مراقى الفلاح . . لقد كتب الحكيم الترمذى عن « مكر النفس » فى كتابه : « منازل العباد من العبادة » .

وبما أننى أعددت رسالة العالمية « الدكتوراه » فى موضوع « السلوك عند الحكيم الترمذى ومصادره من السنة النبوية » كان لابد من التعرف على جميع تصنيفات الحكيم

الترمذى ؛ ولذا كان لابد من مراسلة المكتبات المختلفة في بلاد الدنيا للحصول على نسخ مصورة من المخطوطات التي ألفها الحكيم الترمذى .

والكثير مما ألفه الحكيم الترمذى يعالج قضايا النفس ، ويتتبع كل شىء فيها ؛ ولذا جاء كتابه « أدب النفس » يمس أخص الخصائص فى النفس الإنسانية .

ولقد كان الحكيم الترمذى عالماً من علماء السنة ، وراويًا من روايتها ، وحملتها ؛ ولذا جاءت كتاباته عن أدب النفس ، تتميز بالأصالة وتنطلق من معالجة القرآن الكريم والسنة النبوية .

ولا يخفى على أي قارئ وباحث أن أدب النفس ضرورى لمن أراد أن يتحلى بمكارم الأخلاق ، وأخلاق القرآن الكريم ، ويتأسى بالرسول محمد ، صلى الله عليه وسلم ، قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾

[ الأحزاب - ٢١ ] .

وإذا كان أدب النفس ضرورياً فإن الحكيم الترمذى - وهو عالم من علماء القرن الثالث الهجرى - شغل نفسه بأدب النفس ؛ ومن ثم زخرت حياته بالاشتغال به ، وترك مؤلفات كثيرة تأخذ بالنفس الإنسانية إلى المسار الصحيح ، وتقدم للإنسان النصيح الجميل ، وترسم له طريق المجاهدة ، والتَّريُّض ؛ ليخلص الإنسان إلى عبودية الله سبحانه وتعالى ، فيتحرر الإنسان من الخوف ومن الأسر ، ويبقى خالصاً لله عز وجل . .

والأمة الإسلامية - وهى تتطلع إلى غد مشرق ، ومستقبل زاهر - جدير بها أن تسعى إلى تطهير النفس مما علق بها ، حتى تتأدب النفوس وتهذب ، وتصبح راضية مطمئنة .

والنفوس الطاهرة العفيفة ، التى تأدبت بأدب القرآن الكريم ، وتأسست بأخلاق الرسول ، صلى الله عليه وسلم - تستطيع أن تشق الطريق ، وتضع العلامات المضيئة فى الطريق .

المؤلف

الدكتور أحمد عبد الرحيم

الساج



## أدب النفس

للإمام أبى عبد الله محمد بن على الحكيم الترمذى

« رب يسر وأعن ، ولا حول ولا قوة إلا بالله »

قال الشيخ الإمام العارف ، أبو عبد الله محمد بن على الحكيم الترمذى رحمه الله تعالى :

إن الله أنشأ خلقه لإظهار ربوبيته ، ولبروز آثار قدرته ،  
وتدبير حكمته ، وليكون ذكره ومدحه مردداً على القلوب ،  
وعلى ألسنة الخلق والخليقة ، لما علم فى غيبه ، فأنبأنا فى  
تنزيله ، فقال جل ذكره : ﴿ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ  
بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾<sup>(١)</sup> .

فأعلمنا لما خلق ، فقال : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا  
لِيَعْبُدُونِ ﴾<sup>(٢)</sup> . فقال أهل اللغة : إلا ليوحدون ، ومثل  
ذلك قوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾<sup>(٣)</sup> يعنى نُوحِدُ ؛ لأن فى

(١) سورة الجاثية ، معظم الآية رقم ٢٢ .

(٢) سورة الذاريات ، الآية رقم ٥٦ .

(٣) سورة الفاتحة ، جزء من الآية رقم ٥ .

توحيدهم إياه بأن لا إله إلا هو ، إقرار له بالملك والقدرة<sup>(١)</sup>  
 وإضافة الأشياء إليه ، فهذه الكلمة تنتظم المدح .

وأباح ذكره على كل حال ، تقديمًا له على سائر  
 الحالات ، وأعمال البر ، وحصر ما سواه من الأفعال في  
 أوقات مخصوصة ، مع ما ذكر في الكتاب ، وجرت به  
 الأخبار عن الرسول ، صلى الله عليه وسلم بتفضيل الذكر على  
 سائر الطاعات ؛ لأن في الذكر مدحه .

وجاءنا عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم أنه قال :  
 « ما أحد أحب إليه العُذْرُ من الله تعالى ، ولا أحد أحب  
 إليه المدح من الله تعالى جده » حدثنا بذلك الجارود قال :  
 حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن شقيق ، عن عبد الله بن  
 مسعود رضى الله عنه عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم  
 قال : « ليس أحد أحب إليه المدح من الله عز وجل ، من  
 أجل ذلك مدح نفسه ، وليس أحد أغْيَرَ من الله عز وجل ،  
 من أجل ذلك حَرَّمَ الفواحش » .

---

(١) وإياك نعبد ، أى نقر لك بالعبودية وحدك لا شريك لك .

ونذب العباد في غير آية من كتابه إلى أن ينشروا ذكره<sup>(١)</sup> ، ويذكروا عنه جميل صنائعه ، فقال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ﴾<sup>(٢)</sup> في كل ذلك يحنهم على مدحه وذكره بالجميل والثناء الحسن ، وفي كل اسم له مدحه ، وجميل ذكره .

ودعاهم إلى توحيده ، فقال : ﴿ لَا تَتَّخِذُوا لِلَّهِينِ آثِنِينَ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ ﴾<sup>(٣)</sup> وقال : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾<sup>(٤)</sup> أى وحدون .

لأنك لا تكون له عبداً حتى يكون لك رباً ، لا شريك له ، فمن أشرك به خرج من نظام التوحيد ، فهو وإن كان

(١) الذكر تارة يقال ويراد به هيئة للنفس بها يستطيع الإنسان أن يحفظ ما يعنيه من المعرفة وهو كاللحفظ ، إلا أن الحفظ يقال اعتباراً بإحرازه ، والذكر يقال اعتباراً باستحضاره ، وتارة يقال لحضور الشيء ، القلب أو القول « الفيروز ابادى ، وبصائر ذوى التمييز جـ ٣ ص ٩ » .

(٢) سورة الأعراف ، جزء من الآية ١٨٠ .

(٣) سورة النحل ، جزء من الآية رقم ٥١ .

(٤) سورة الأنبياء ، الآية رقم ٢٥ .

له عَبْدًا من طريق الملك ، فالعبد بنفسه لم يُصَيِّر نفسه عبدًا ، فيكون قد وَحَّده وعبده ، وإنما أطاعه لأن الله تعالى أمره أن يطيع ، فأطاع مولاه بأمر الله تعالى ، فمن أطاع بأمر الله فهو مطيع لله .

ثم إن الله تعالى دعاهم إلى أن يوحدوه قلبًا وقولًا وفعلًا . فمن قبل ذلك منه جُمْلَةً ، فاستقرت المعرفة بأنه واحد ، فاطمأن به قلبه ، وترجم به لسانه عما في ضميره ، وعزم على الفعل مائلاً له ، فقد آمن به ، وهذا كله من العبد في وقت واحد ، فركب فيه الشهوات والهوى ، وجعل للشياطين فيهم وساوس يجرون فيهم مجرى الدم<sup>(١)</sup> ، ويغوصون غوص النون في البحر<sup>(٢)</sup> .

وجعل القلب ملكًا على الجوارح ، فالشهوة تحرك البدن الساكن ، وتزعج القلب ، والشيطان يمينه ويزين له ويعده ، والهوى يميل به ويقوده ، فالمؤمن قلبه مطمئن بالإيمان ، والتوحيد ظاهر على لسانه .

---

(١) يؤيد هذا حديث : « إن الشيطان ليجرى من أحدكم مجرى الدم في عروقه » .

(٢) النون : الحوت .



فإذا جاء وقت فعل الأركان عمل فيه الشهوات ، وزين  
 له العدو ، ومال به الهوى حتى يفعل الفعل الذى يخيل إليك  
 فى الظاهر أنه لم يؤمن بعد ، فهو موحد بالقلب واللسان .  
 ولكن تغلبه الشهوة وقوتها ، فبظلمة هذا الهوى ،  
 ووسوسة هذا العدو والتزيّن غلب على القلب ، لا على ما  
 فى القلب ، ممّا فى القلب من المعرفة ، فالقلب به مطمئن ،  
 ولكن صار مأسورًا مقهورًا ، وهو أبدًا لمن غلب عليه  
 وقهره .

فخلق اللوح ، وجرى القلم بمقادير الخلق ، وخلق  
 السموات والأرض ، والظلمات والنور ، والليل والنهار ،  
 والملائكة ، والجنة والنار ، والجن والشیاطین ، والجبال ،  
 والبحار ، والدواب ، والأقوات ، والمعایش ، وسائر  
 الخلیقة .

ثم خلق آدم عليه السلام ، فاصطفاه ، وجعله بديع  
 فطرته ، وأسجد له ملائكته ، وعلمه الأسماء ، وأبان فضله ،  
 وكرّم بنیه ، وحملهم فى البر والبحر ، وفضلهم على كثير ممن  
 خلق تفضيلًا ، وسخر له ولذريته ما فى السموات والأرض ،

واستخرج ذريته من ظهره ، وأخذ عليهم الميثاق<sup>(١)</sup> ثم ردهم إلى صلبه ، ثم نقلهم من الأصلاب إلى الأرحام ، ومن الأرحام إلى دار الدنيا ليعبدوه ، وليوفوا له بما عهد إليهم يوم الميثاق ، بألا يشركوا به شيئاً ، إلى آجالهم التي كتبها في المقادير ، إلى أن تنقضى مدة الدنيا ، فيبعثهم للجزاء ، وتُبدل الأرض غير الأرض والسموات ، وبرزوا لله الواحد القهار ، وليجزى كل نفس بما كسبت ؛ ليكونوا فريقين : فريقاً في الجنة ، وفريقاً في السعير .

فمن نَوَّرَ الله قلبه بالإيمان قويت معرفته ، واستنارت بنور اليقين ، فاستقام به قلبه ، واطمأنت به نفسه ، وسكنت ووثقت ، وأيقنت ، وَائْتَمَنَتْ على نفسها ، فرضيت لها به وكيلاً ، وتركت التدبير عليه .

فإن وسوس له عدو بالرزق والمعاش لم يضطرب قلبه ولم يتحير ؛ لأنه قد عرف ربه أنه قريب ، وأنه لا يغفل ولا ينسى ، وأنه رءوف رحيم ، وأنه رب غفور رحيم ، وأنه عدل

---

(١) كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ؟ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا ، أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾ [ الأعراف . الآية ١٧٢ ] .

لا يجور ، وأنه عزيز لا تمنع منه الأشياء ، وأنه يُجِيرُ ولا يُجار عليه .

فكما خلقه محتاجاً مضطراً ، فإنه سيوصله إليه من حيث يريد الرب تبارك وتعالى ، لا من حيث يريد العبد ، على الهيئة التى يريد الرب ، لا على الهيئة التى يريد العبد ، وبمقدار ما يريد الرب ، لا بمقدار ما يريد العبد ، وفى الوقت الذى يريد الرب ، لا فى الوقت الذى يريد العبد<sup>(١)</sup> .

فعامة أهل التوحيد قد أيقنوا بهذا ، إيماناً به ، وقبولاً له ، ولم يستقر ذلك الإيمان فى قلوبهم ، حتى إذا كان وقت الحاجة اضطربت قلوبهم وتحيرت ، واشتغلت عن خالق الأشياء ، ومالك الملوك ، وأهل اليقين الذين قد استنار الإيمان فى قلوبهم سكنت القلوب ، واطمأنت النفوس إلى ضمان ربها ، وقربه منهم ، وقدرته عليهم .

---

(١) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قال الله عز وجل : عبدى أنت تريد وأنا أريد ، ولا يكون إلا ما أريد ، فإن سلمت لى فيما أريد كفيتك فيما تريد . وإن لم تسلم لى فيما أريد أتعبتك فيما تريد ، ولا يكون إلا ما أريد » .

فهذا شأن الرزق والمعاش . وفوضوا أمورهم فيما سوى المعاش إليه ، واتخذوه وكيلاً ؛ لأنهم عرفوا<sup>(١)</sup> بأنه رءوف رحيم منهم بأنفسهم ، وأحق وأولى بأنفسهم من العبيد بأنفسهم ؛ لأنه خلقهم فصورهم ، وركبهم وأحسن تقويمهم ، وسوى تعديلهم ، فلم يكن لهم أنفسهم من العلم والتدبير ما دبر لهم ، وعرفوه ملكاً قادراً قاهراً ، يفعل ما يشاء ، وقد سبق علمه فيهم ، مما يكون فيهم ولهم وعليهم ، وجرى مع سابق العلم لهم بذلك قلمه في اللوح المحفوظ ؛ ليكون أوكد في قلوب العباد ؛ لأن سابق العلم غائب عن القلوب لا يدري كنهه ، واللوح قد خط بالقلم ، فيه أمر محدود ، وشخص مخلوق ، ويدرك بالقلوب معاينة .

فما عاين القلب وأدركه أثبت عندهم مما لا تعاينه القلوب ، ولا يمكن توهمه ، فخلق اللوح ، وأثبت مقاديرهم فيه ، لا حاجة به إلى ذلك ، وليكون أثبت على القلوب ، لتسكن النفوس ، وتستقر على ما جرى القلم به .

فإذا سكنت النفوس تفرغت القلوب لعبادته ، وحفظ حدوده ، وإقامة أموره ، وسقطت أشغال النفوس عن القلوب

(١) في المخطوط : لما عرفوا .

فيما يراد بها ، وما يكون وما يحدث ؛ لأنها قد أٌيست عن أن يكون غير ما جرى به القلم ، وعند الإياس تسكن النفوس ، وإنما دعانا إلى أن نعبده ونقيم حدوده ، ونقيم فرائضه ، ونتجنب مساخطه ، ولنا قلب واحد ، فأثبت في اللوح أرزاقنا وسعينا ، وآثارنا ، وأحداثنا ، ومدة آجالنا ، وعامة أمورنا ؛ لتطمئن النفوس ، وتخلص القلوب من وساوسها ، فتعبده بفراغ ، وكل ذلك منه رحمة علينا ، وبين ذلك في تنزيله ، فقال تعالى : ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ۚ ﴾<sup>(١)</sup> أى من قبل أن تُخلق تلك المصيبة .

ثم بين لما فعل ذلك ، فقال : ﴿ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ﴾<sup>(٢)</sup> ، فإن التأسى على الشيء الذى لم يقدر لك فى اللوح هو استبداد وطلب ما ليس لك ، والفرح بما آتاك يلهيك ويشغلك عن المُعطى ، حتى تأثر وتبطر بما تعطى ، فتهلك .

(١) سورة الحديد - جزء من الآية رقم ٢٢ .

(٢) سورة الحديد - جزء من الآية ٢٣ .

وإنما المُبْتَغَى منك في ذلك أن تلهو عن الغائب ، وتفرح في الموجود الذى أتاكَ بالأهل الذى أتاكَ ، ثم بفضلِهِ ورحمته عليك ، وإلى هذا ندبك فقال : ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ <sup>(١)</sup> .

وقال تعالى في شأن الرزق : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ <sup>(٢)</sup> . ثم قال تعالى : ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلْمَتٍ إِلَّا يَبْسُهَا وَلَا يَرْزُقُهَا إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ <sup>(٣)</sup> . أى من يأكل تلك الحبة ومن يُرزقها .

فإن اضطربت نفسه على ضمانه لقلة اليقين ، وغلبة الهوى ، وحرارة الشهوات ، خاطب نفسه فقال : يَا أَيُّهَا

(١) سورة يونس - الآية رقم ٥٨ .

(٢) سورة هود - الآية رقم ٦ .

(٣) سورة الأنعام - الآية رقم ٥٩ .

النفس لِمَ تضطربين ؟ قالت : لأنى محتاجة ، وُحِلْتُ مضطرة ، ذات شهوات ، لا أبصر أمكنة الأشياء ، ولا أعرف أوقاتها ، ولا أعلم مقدارها ، واشتبهت على كيفية أسباب وصولها إليّ . فقال لها : أيتها النفس إن كنت قد آمنت بربك ، فحقيق عليك أن يكون كلام رب العالمين ووعده وضمانه وتكفُّله أثبت عندك وأؤكد وأقوى من الذى تُبصِّرِينَهُ على المشاهدة .

لأن البصر ربما أخطأ ، وربما كان مسحوراً ، يرى أنه كذلك ، وليس كذلك ، وقول رب العالمين أصدق وأبر ، وأوفى وأثبت من بصرك بعينك .

فلو أبصرت الشيء الذى يحويه ملكك اطمأنتِ وسكنتِ ، فكيف لا يكون بضمانه أشد طمأنينة ، أرايتِ لو كان لكِ ديوان فيه غرماء مُمَلَّاةٌ <sup>(١)</sup> أسماؤهم ، مكتوب فيه على فلان ألف درهم ، وعلى فلان ألف دينار ، وعلى فلان عشرة آلاف درهم ، أكنتِ تطمئنين ؟

فإن وجدتِها قد طابت وسكن اضطرابها ، لما وجدتِ فى الديوان من أسماء هؤلاء ، وهم أهل صدق ووفاء ، فانشر

---

(١) فى المخطوط : ملاء . . والغرماء : الذين عليهم دين .

عليها ديوان رب العالمين ، وهو القرآن المجيد ، المنسوخ في اللوح المحفوظ ، تنزيل من الرحمن الرحيم ، نزل به الروح الأمين ، على قلب محمد رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، رسول رب العالمين ، فَقَلَّبْ أَوْرَاقَهُ ، حتى تقف بها على آية الرزق ، حين يقول تعالى : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾<sup>(١)</sup> .

ثم قل لها : أيتها النفس المطمئنة ، وجدتِ في ديوانك على هؤلاء الغاوين ما وجدتِ وفرحت ، وأمنت الفقر فطبت ، فهذا في المصحف قوله : ﴿ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾<sup>(٢)</sup> أهذا أعظم شأناً ، وأصدق وأبر وأوفى ، أم الذى وجدتِ في ديوانك ؟ أما تستحِينَ أن تلقى ربك بهذه الحالة ؟

ولكنى قد فهمت لِمَ اضطربتِ ، بعد أن أيقنت بضمان ربك ، إنك ذات شهوات ، فيك شهوة العز ، فأنتِ تهريين من الذل ، وفيكِ شهوة ألوان الطعام ، فأنتِ تهريين من البؤس ، فيك شهوة إدارك المنى ، فأنتِ تهريين من فوتها ،

(١) سورة هود - جزء من الآية رقم ٦ .

(٢) سورة هود - من الآية رقم ٦ .



وإنما تضطربين لأنك أردتِ أن يكون رزقك في وقت ، وأراد ربك في وقت آخر ، واشتيت أن يكون على صفة ، وأراد ربك غير ذلك ، وأردتِ من وجه راحةً ، وأراد ربك من وجه تتعين فيه ، وأردتِ كثيرًا ، وأراد ربك أقل من ذلك .

فأصبحتِ وأمسيتِ مخالفة لربك في مشيئاته وإراداته ، فحملك ذلك على الشهوة حتى غلبتك ، فرمتك في أودية المهالك ، فأقبلت بهلعك وجزعك على حطام الدنيا ، من سبيل الخبائث والأقذار والشبهات والأوساخ ، لسكون نفسك به ، ثم منعتِ حقوق الله فيه من ظاهر الأحكام .

فقطعت الأرحام ، وباغضت العباد ، واستخففت بحقوق المسلمين والمؤمنين ، وهربت من إنصافهم ، وجفوت أهل الحرمة ، فأصبحت وأمسيتِ ظلومًا غشومًا ، ووعد الله ينادى في سمعك قوله تعالى : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ <sup>(١)</sup> .

(١) سورة الأنبياء - الآية رقم ٤٧ .

فهل تعرف مقدار الخردلة من الظلم ما هو ، وكيف يكون ؟ لو نجح<sup>(١)</sup> فيك هذا الوعيد لطارت منك الشهوات ، ومات منك الهوى .

فأهل الفهم راضوا أنفسهم ، وتدبروا فقالوا : كيف لنا بألا نأسى على ما يفوتنا من الدنيا ؟ وتمنوا إليه حاجة ، وطلبوا من أين يدخل الضرر عليهم .

فوجدوا أنهم لما عارضتهم الحوائج في أنفسهم ، تحدثوا بها وتمنوها وطلبوها على التملك والافتقار ، وأطعموا أنفسهم في إصابتها ، فلما فاتهم وجدوا الأسى والحزن ، على فوت ذلك ، فهموا أن هذا إنما دخل عليهم ، من أجل أنهم تمنوها وأطعموا أنفسهم في إصابتها ، فوجدت النفس حلاوة وجودها ، وقوى الهوى ، فراضوا أنفسهم بترك الشهوات وقطع المنى ، فخدمت نيران شهواتهم ، ففارقوا الهوى جهدهم ، لمجاهدتهم إياه ، حتى ذلل وانقمع ، وكلما بدا لهم أمر أو خطر ببالهم لم يتمنوا ، ولا أطعموا أنفسهم ، وانتظروا ما يبرز لهم من المسطور في اللوح السابق ، قبل خلق السموات ، وسلموا لربهم ، وانقادوا لحكمته كالعبيد .

(١) لو نجح فيك : أى أفاد ونفع . ويقال : ونجح فيه القول والخطاب والوعظ : عمل فيه ودخل وأثر [ ابن منظور ، لسان العرب ] .

فعاشوا في الدنيا بأرفع درجة ، وأكرم منزلة ، عند  
 أنفسهم ، وأنعم بال ، وأقر عين ، بهذا الدين ، وماتوا بروح  
 وريحان ، ولقوا رباً غير غضبان ، رضوا عن مولاهم فرضى  
 عنهم ، فأيدهم في الدنيا بروح منه ، وفي الآخرة قُرَّبهم  
 ولطف بهم : ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ  
 الْمُفْلِحُونَ﴾<sup>(١)</sup> . أولئك أولياء الله لا خوف عليهم  
 ولا هم يحزنون ، استنارت قلوبهم باليقين ، فصارت في نوائبهم  
 كالمعينة .

كلما حل بهم أمر من عسر أو يسر ، أو خوف أو أمن ،  
 أو ذل أو عز ، أو بلاء أو نعمة ، حرقت أبصار قلوبهم ،  
 فأبصرت في لحظة أن هذا الأمر قد كان في اللوح المحفوظ  
 كما برز لنا الآن ، وهو حكم الله علينا ، لم يكن فيهم من  
 الشهوات ، ولا من الهوى ، من القوة ما يثقل عليهم قبوله  
 من ربهم ، وتلقوا أمره بالهشاشة<sup>(٢)</sup> وتلاقت النفس وبشر

(١) سورة المجادلة - من الآية رقم ٢٢ .

(٢) الهشاشة : الارتياح والخفة للمعروف . وأهش هشاشة ، إذا خفت إليه  
 وارتحت له وفرحت به « لسان العرب » .

الوجوه ، فهم الراضون ، والصابرون ، قبلوا على كره ، من نفوسهم وجهد ؛ لأن شهواتهم حية قوية فى نفوسهم ويقينهم ضعيف ، لم يبصروا اختيار الله لهم ذلك ، ، ورأفته ورحمته عليهم ، ولم يكن لاختيار الله تعالى ولا لمشيئته عندهم موقع حلاوة . فكانت تلك الحلاوة تمازج مرارات النفوس ، فتذهب بالمرارة ، كما تجذب المرارات فى الأدوية ، فتمزج بالعسل والسكر ، وما أشبه ذلك ، فيغلب عليه ، فتفقد تلك المرارات منها .

وإنما تقع حلاوة صنع الصانع فى قلبك ، على قدر حبك للصانع ، وإنما تحب الصانع على قدر معرفتك بقدره ، وكلما كنت به أعلم ، وكان هو أرفع منزلة فى الأشياء ، كان قدره عندك أعظم ، فهو إليك أحب .

ولذلك قيل : أشدهم حباً له أعلمهم به ، وأعرفهم له ، ومنه قول بديل العقيلي : « من عرف ربه أحبه ، ومن عرف الدنيا زهد فيها » . رواه ابن المبارك ، عن سفيان الثوري ، رحمهما الله تعالى ، قال : كتب الحجاج بن فرافصة عن بديل رحمه الله .

فمن عجز عن الرياضة ، فإنما يقبل أحكام الله تعالى ومشيثاته ، على حد الإيمان . وصبر على أموره على حد التقوى بأركانه على ثقل من نفسه ، وتنغيص وتكدير من عيشه ، وجهد من قلبه ، ومن راضها وأدبها استقامت في السير ، وانفطمت عن أخلاقها ، وتداركه ربه بالنصر والممدد ، وأنجز له الوعد .

فقد بين هذا الشأن في آيتين من كتابه ، فقال : ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾<sup>(١)</sup> فأمر بمجاهدة النفس وفطمها عن أخلاق السوء عن أن يريد غير ما يريد الرب جل وعلا ، ولو تركنا في جميع أعمارنا لكان هذا أمراً هائلاً عظيماً . لكنه وعد في آية أخرى أن يخلصنا من وباله ، ويؤدبنا ويصيرنا ، فقال : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾<sup>(٢)</sup> . فهو هاديك ، وهو معك في النصر والتأييد ، فرحمته منك قريبٌ ممَّنْ يقويك ومن يدركك .

(١) سورة الحج - من الآية : ٧٨ .

(٢) سورة العنكبوت - الآية رقم : ٩٦ .

وإنما الشأن أن تجاهد في بدء أمرك حق جهاده ، فإذا أنت قد ظفرت بالوعد الثاني قد أنجزه لك ، فإذا هداك السبيل ملأ قلبك نوراً ، وكلاءة ورعاية ، حتى لا تزيع ، فهو المنيب ، المقبل على ربه ، القابل لأمره بالهشاشة والسرعة .

ألا ترى إلى قول الرسل الذين مضوا عليهم السلام ، حكى عنهم الرب تبارك وتعالى ، حيث قالوا : ﴿ وَمَا لَنَا إِلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَبْنَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَاءٍ أَذِيتُمُونَا ﴾<sup>(١)</sup>

والتوكل هو أن تفوض أمرك إلى ربك ، ثم ترضى بما يصنع بك ، فعلموا في قلوبهم أنهم إنما قووا على ذلك بما هداهم الله لسبيله . ومما يحقق ما قلنا في شأن الراضى والصابر قول رسول الله ، صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عباس ، رضى الله عنهما : « فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَعْمَلَ لِلَّهِ بِالرِّضَا وَالْيَقِينِ فَافْعَلْ ، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَاصْبِرْ ، فَإِنَّ الصَّبْرَ عَلَى مَا تَكْرَهُ خَيْرٌ كَثِيرٌ ، وَاعْلَمْ أَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا وَمَعَ الْكُرْبِ فَرَجًا » . حدثنا بذلك على بن حجر قال : حدثنا بذلك

(١) سورة إبراهيم - من الآية رقم ١٢ .

إسماعيل بن عياش ، وعيسى بن يونس ، قالوا حدثنا عمر مولى غفرة ، عن عبد الله بن عباس ، رضى الله عنهما ، عن قول رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك ، فقد بين رسول الله ، صلى الله عليه وسلم المنزلة في هذا الحديث .

واعلم أن الصابر عاجز عن مقام الراضى ، وأن الراضى باليقين أدرك ذلك ؛ لأنه عاين عواقب الأمور . وذلك بمنزلة رجل كان له كيس من دراهم افتقده من حيث وضعه ، وهو لا يملك شيئاً سواه ، فثار في رأسه كالثيران من شدة الوجد لفقده ، حتى تبن ذلك في أحواله ، وفي وجهه ، وظهر اغتمامه بذلك ، فقال له رجل مليء ، وفئ بر صدوق : أنا أعطيك رأس السنة بدل كل درهم ديناراً ، فسكن إلى قوله ، وسكن بعض ما به من الوجد ، فلا يخلو من الاغتمام ، ويضيق صدره ، بمضى هذه المدة ، فهو يصبر على كره ، إلا أنه مازج بما أطمع فيه ، الوجد الذى فى نفسه فخف ما به ، وهو كاره صابر .

ورجل آخر افتقد كيساً من دراهم ، وفى ملكه ملء بيوت من جواهر ، كل جوهر لا يدرى ما قيمته ، فما تبين عليه فقد ذلك الكيس ، ولا يبالي به . وهو فى ذلك كالذى افتقد

فَلَسًا وعند كيس من الدراهم . فالأول هو غنى بالمال ،  
والثاني غنى بربه ومليكه .

فالأول فرح بالمال والأحوال ، والثاني فرح بالله ، ثم  
بفضله ورحمته ، عامة ملجئه ومفرغه إلى الله عز وجل ،  
فالأول قلبه مأسور بالأشياء ، قد ملكته حلاوة الأشياء والثاني  
سكن قلبه حلاوة قرب الله عز وجل ، فالأول قَلْبُهُ بالأشياء ،  
وبالأشياء تعلقه ، والثاني مشغول بالله ، وإليه منيب ، وبه  
متعلق .

ومما يحقق عندنا حال هذا الثاني ، ما أتت به الأخبار عن  
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعن السلف الصالح ، من  
بعده ، حدثونا به عن ابن المبارك ، عن صالح المري ، عن  
حبيب بن محمد ، وهو العجمي رحمه الله ، عن شهر بن  
حَوْشَب ، عن أبي ذر ، رضى الله عنه ، ولم يرفعه ، وأما غير  
ابن المبارك فرفعه إلى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ،  
قال : « يقول الله تبارك وتعالى لجبريل عليه السلام : يا  
جبريل انسخ من قلب العبد الحلاوة التي كان يجدها به ،  
فينسخها من قلبه ، فيصير العبد وَالَهَا » . .



فإن اعترض في هذا القول معترض بالإنكار ، وقال هذا غير موجود في الأنبياء والرسل ، عليهم السلام ، فقد جاءنا عنهم أنهم كانوا يكون في المصائب ، ويجزنون عليها ، ويجدون ألم الأشياء المكروهة ، ويفرحون في المحبوب .

فيقال له : يا عاجز ، وما يدريك من أى شيء بكـت الرسل وحزنت ؟ وكيف كان فرحهم ؟ ومن أى شيء فرحوا ؟ فرب فرح محمود ، وعلى ذلك حب الله عباده ، ورب حزن ممدوحٌ أهله في الدنيا والآخرة ، ونطق الكتاب بالثناء عليهم ، والبكاء على سبعة أنواع فما فوقها ، كل نوع منها من شيء غير الآخر ، فهل ميزت بين هذه الأشياء ؟ وهل أُطِّلِعْتَ مَطْلَع هذه المنازل ، أم أنت رجل اتبعت شيئاً من هذا العلم تفخر به ، وترأست به فأنت تريد أن تطفئ نور الله ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المشركون والكافرون<sup>(١)</sup> .

فأما فرح المتقين بفضل الله ، ورحمته ، وعلى ذلك دل عباده ، وأما فرح الأنبياء والصديقين فيه ، تبارك اسمه ،

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾ [ سورة التوبة - الآية رقم ٣٣ ] . وقوله تعالى : ﴿ ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ﴾ [ سورة التوبة الآية رقم ٣٢ ] .

ولذلك روى لنا عن مالك بن دينار رحمه الله ، قال : قرأت في بعض الكتب : « يا معشر الصّديقين تنعموا بذكرى ، فإن ذكرى لكم في الدنيا نعمي ، وفي الآخرة جزاء » .

وقال في حديث آخر : « آثرتموني على شهواتكم ، ورضيتم بي بدلاً من خلقي ، فبي فافرحوا ، وبذكرى فتنعموا ، فوعزتي ما خلقت الجنان إلا من أجلكم » . وحدثنا عبد الرحيم بن حبيب الفارياي .، في حديث له ذكره عن حبيب العجمي ، رحمه الله ، أنه كان يقول ( ما ) تفسيره : « يارب فرحت حتى كدت أموت من الفرح ، كونك لي رباً<sup>(١)</sup> وأنا عبدك : » خدایا عجب است ممکن إزشادی بمیرم کف مراجو تُوَاخذنی » .

وأما بكاؤهم ، فكانت الأنبياء عليهم السلام ، أرحم البرية ، فكلما ازداد العبد من الله تعالى قُرْبَةً ، كانت له من الرحمة أكثر ، وكذلك روى لنا عن ابن المبارك ، عن عبيد بن عمير ، قال : « ما ازداد العبد من الله تعالى قُرْبَةً ، إلا كان له من الرحمة ما ليس لغيره » . حدثنا بذلك الجارود بن معاذ

(١) في المخطوط : « مثلك لي رب » .

رحمه الله ، عن علي وعمير بن عبد الله ، فكانوا في المصائب يرحمون ، فيكون ما يرون . وكانوا أعلم الناس بالموت ، وكنه مرارته ، وعِظَم شأنه ، وخطَر المَقْدَم على الله عز وجل . فكانت قلوبهم ترق لما يرون .

ألا ترى أنه قال في حديث إبراهيم ابنه : « إنما هذه رحمة ، ومن لا يُرحم لا يُرحم » . فكان يبكي وبعد ذلك رحمة ، ويحتسب بذلك البكاء على الله عز وجل .

ألا ترى أنه عاب من لا يرحم ، فكانت تلك منه رقة ومن هؤلاء القوم فتنة وصباية . وكذلك وجدنا الخبر عن حزن يعقوب عليه السلام ، أنه قال ليوسف عليه السلام : يا بني إنما حزنت عليك مخافة . وأيضاً من طريق آخر ، قد يجوز أن يكون الله سبحانه إذ جعلهم أئمة الخلق ، هيح منهم أشياء ليكون لمن بعدهم بذلك اعتبار .

وفي هذا كلام إلى غاية الطول ، قد بيناه في كتاب « صفة القلوب وأحوالها وهيئة تركيبها »<sup>(١)</sup> وما يتردد في النفس في صدور القلوب .

---

(١) كتاب صفة القلوب منه مخطوطة بمكتبة قسطنطيني رقم ٢٧١٣ ، ومكتبة

رجعنا إلى ذكر « رياضة النفس » :

## رياضة النفس

قال له القائل : وما رياضة النفس ؟ وكيف يكون ذلك ؟  
 قال : يسيرٌ على من يسره الله ووفقه . فأما الرياضة فهي  
 مشتقة عربيتها من الرضّ ، وهو الكسر<sup>(١)</sup> ، وذلك أن  
 النفس اعتادت اللذة والشهوة ، وأن تعمل بهواها . فهي  
 متحيرة ، قائمة على قلبك بالإمرة ، وهي الإمرة بالشهوة ،  
 فيحتاج إلى أن يفطمها ، فإذا فطمها عن العادة انقضت .  
 ويقال في اللغة : راض ، ورض ، بمعنى واحد ، فمن قال  
 رضّ ، فلما أدغم الألف في الضاد شدّد ، ومن أبرز الأنف  
 خفف الضاد ، فقال راض ، فالرض الكسر ، فقليل في  
 الأشياء المكسورة رَضّ ، وقيل في الأخلاق المكسورة  
 راض ، فهذه النفس إذا فطمتها انكسرت عن الإلحاح  
 عليك ، ومنازعتك في الأمور ، فإن النفس اعتادت اللذة

---

برلين رقم ٣١٣٠ ويقال إن النسخة التي كانت موجودة بمكتبة برلين فقدت  
 أثناء الحرب العالمية الثانية .

(١) انظر ابن منظور ، لسان العرب ، المجلد السادس ، ص ١٦٥٩ ، ط :  
 دار المعارف بمصر .

والشهوة ، وأن تعمل بالهوى ، فإذا فطمتها عن العادة انقطعت ، ألا ترى أن الصبي إنما اعتاد ثدى أمه ، كيف سكوته بذلك الثدي ، إنما يحن إليه إذا فقدته ، وكيف يفرح به إذا وجدته . فكذلك النفس الشهوانية ، فإذا فطم الصبي انقطع ، حتى لا يلتفت إلى الثدي بعد ذلك ؛ لأنه وجد طعم ألوان الأطعمة ، فلا يحن إلى اللبن ، كذلك النفس إذا وجدت طيب اليقين ، وروح قرب الله تعالى ، وحلاوة اختيار الله عز وجل ، وجميل نظره لها ، لم تحن إلى تلك الشهوات .

## اليقين

قيل له : فماذا يوجد اليقين<sup>(١)</sup> قال : بطهارة القلب ؛ لأن اليقين طاهر فيطهر مكانه ومستقره .

---

(١) قال المحققون : اليقين من الإيمان بمنزلة الروح من الجسد ، وفيه تفاضل العارفون ، وتنافس المتنافسون ، وإليه شمر العاملون ، وإذا تزوج الصبر باليقين ، ولد بينهما حصول الإجازة في الدين ، قال الله تعالى : ﴿ وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون ﴾ [ سورة السجدة - الآية رقم ٢٤ ] .

قيل له : وما طهارته ، قال : ترك ما اضطرب القلب عليه ورابك منه تورعًا ، دق أو جل ، ثم تطهره من التعلق بالشهوات ، والاشتغال بها ، فإذا أنت فعلت ذلك صقلت قلبك ، فصار لك مرآة بالتورع ، فكلما تفكرت شيئاً من أمر الآخرة ، تمثل ذلك في مرآتك ، حتى تصير الآخرة لك معانية ، فإذا منعت قلبك عن حريق الشهوات ، كما تصون مرآتك عن حرارة أنفاسك ، تمثل في قلبك الملكوت ، حتى يصير أمر السموات إلى العرش لك معانية ، تبصره بعيني قلبك ، كأنك تنظر إليه ، كما قال حارثة ، رضى الله عنه : يا رسول الله . « كأنى أنظر إلى عرش ربي بارزاً ، وإلى أهل الجنة كيف يتزاورون ، وإلى أهل النار كيف يتعاوون » ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « عرفت فالزم ، عبد نَوَّرَ الله الإيمان في قلبه »<sup>(١)</sup> . فإذا صنت قلبك فصنه بعد ما ذكرنا عن النظر إلى نفسك إعجاباً وفرحاً ، بالغطاء لها انقطعت الأسباب منك ، وَصَفَا لَكَ طَرِيقُكَ إِلَى اللَّهِ عز وجل بلا غبار ولا غيم ، فلا يغان<sup>(٢)</sup> على قلبك ،

(١) رواه البزار بسند ضعيف عن أنس والطبراني في الكبير من حديث الحارث بن مالك ، وسنده ضعيف أيضاً .

(٢) يقال : غين على قلبه غيئاً ، إذا تغشته الشهوة . وقيل : غين على قلبه =

فإذا أصاب قلبك الغين استغفرت الله في اليوم مائة مرة » .  
وهذا الْعَيْنُ من رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، ليس كما  
يجده مَنْ بعده فيما نعلمه ، فليس نراه من طريق التخليط ،  
ولا من طريق العيب ، فقد كان قلبه أظهر ، وشأن أمره أعظم  
وأجل من أن يُظَنَّ به .

ولهذا الباب تفسير أوضح من هذا ، نبينه في آخر هذا  
الكتاب ، إن شاء الله تعالى ، في صفة القلب وخلقه وشرح  
اليقين ما هو .

[ وإن ] أردنا أن نُسْتَتِمَّ ذكر النفس ورياضتها عدنا إلى  
ذكر رياضة النفس ، ألا ترى أن البازي كيف كان نفاذه من  
الأدميين في الجبال الشاخات ، فلما رُبَّ وأُمْسِكَ على التريية ،  
أنس بصاحبه ، وأخذت التريية بقلبه ، واعتاد السكون معه ،  
فنزح عن النفار ، وترك هَمَّ الطيران ، واطمأن إلى صاحبه ،  
حتى إذا أرسله وحثه على الطيران طار ، فأصَاد وأمسك عليه  
صيده ، تحرياً لموافقة مولاه ، ثم إن دعاه من الطيران رجع ،  
وآثر هواه على هوى موافقة نفسه ، فأجابه منقضاً إلى حبله  
وسباقه .

= غطى عليه وألبس . وغبن على الرجل أى غطى عليه « لسان العرب » .

أفلا يحق على مؤمن أبصر هذا أن يموت كمداً وعبرة ،  
وأسفاً على فَوْتِ هذا من نفسه ، أن يكون طيره أسمع له  
وأطوع ، وأشدّ تحريماً لموافقته ، وألزم لنصيحته من العبد  
المؤمن لربه .

ألا ترى إلى الدابة الحسياسة قيمتها قليلة ، تُؤخذ من  
الدواب وقد اعتادت الرعى حيثما شاءت ، كيف يروضها  
الرائض على قبول السرج واللجام ؟ وكيف يؤدبها حتى تأخذ  
السير ؟ وكيف يؤدبها عند القناطر ، وفي مواضع الجلبة .  
يريد أن يشيعها حتى لا تهاب هذه المواضع إذا بلغت ؟  
وكيف تفتح أذنيها عند المسير ، وتميل يميناً وشمالاً لا ينقلب  
عنانها ، فإن لم تجد قنطرة فأهوى بعنانها ، وثبت إلى الجانب  
وثبة مخاطرة بنفسها ، وإن استقبلتها جلبة لم تهب ، ولم تترك  
سيرها ، فتصير بحال تصلح لذلك ؟

فإن قُوِّمَتْ قُوِّمَتْ بالدنانير رفعة لها ، لا بالدراهم ،  
فتجلل وتبرقع ، ويصفى لها العلف ، وتربط في مربط الملك ،  
فإنما بلغت هذا المبلغ ، وسقط عنها جهد العمل وكده ،  
وحمل أثقال الحمولات ، وتخلصت من دبر الظهر ، ومشقة  
الاستعمال .



فإنها تركت هواها ، ورفعت بالها عن نفسها ، فإن  
خاطرت لم تبال ، وإن أتعبت نفسها لم تمل ، وإن اقتضاها  
راكبها السير<sup>(١)</sup> والركض والوثب ، استفرغت مجهودها في  
إعطاء كل ما يُتَعَي منها ، من غير جمع ، ولا حزن ، ولا  
تلكؤ ، ولا شمس ، ولا كسل ، ولا تركت أديها . وقد  
كانت قبل ذلك هملاً في الرعى ، تفعل ما هويت ، فهي قرية  
القيمة من أشكائها من الدواب . وإنما اختصها الملك وأطاب  
علفها ، وصانها عن رؤية الناس ، وجللها ، وعزلها عن الجهد  
والكد ، بترك مراعيها وهواها ، ونشاطها ، وأنسها  
بأشكائها ، واحتماها التعب في جنب مالکها ، وإعطاء المجهود  
بالصدق من نفسها ، ويقظة قلبها ، ونظرها بقلبها إلى راكبها .

ولو كانت - إذا راضها - لم تنقد لمولوها ، ولم تأخذ  
سيرها ، ولم تؤدب بأدبه ، فإن سِيرَهَا أبطأت في السير ،  
وإن مال بعنائها امتنعت وشَمَسَتْ<sup>(٢)</sup> ، وإن مدها جمحت  
فمدت به ، وفي الموضع الذي كان يريد السير منها امتنعت

---

(١) في الأصل : للسير ، واقتضى يتعدى إلى مفعولين ، تقول : اقتضاه دينه ،  
كما في أساس البلاغة للزمخشري .

(٢) شمس الدابة : شردت وجمحت ومنعت ظهرها « لسان العرب » .

من إعطاء ما فيها من القوة ، وفي الموضع الذى أراد منها الوقوف حرنت<sup>(١)</sup> ، فركبت هواها ، فجاءت بالقوة التى امتنعت منها هناك فى السير .

فإن قهرها باللجام فأمسكت عن الركض ، لم تمسك من أجل مولاه ، ولكنها أمسكت من كبج اللجام ، والألم الذى خلص إلى كبوحيتها ، فأشفقت على فيها ، وأسنانها ، ولسانها ، وحنكها ، فتركت حينئذ هواها ، فجعلت تدور ولا تستقر ؛ لأنها لم تسخُ نفسها الدنيئة بطاعة راكبها ، ومع ذلك تبول وتروث فى مكانها ، وتبرك فى مكانها .

فإن استقبلها جلبة نفرت ، وتركت سيرها ، فرجعت قهقرى ، فربما كانت من خلفها بئر أو جرف تتردى فيها ، وتنكسر وتقتل نفسها ، فهذه دابة خسيصة ، فيها أخلاق السوء ، لا تصلح للملك ، وإنما تصلح للحمولة ، فتراها الشهر ، والدهر موكفة<sup>(٢)</sup> تحت الحمولة ، فمرة مهزولة ،

---

(١) حرنت الدابة تحرن حرائثا ، وهى التى إذا استدار جريها وقفت . وفرس حرون لا ينقاد . إذا اشتد به الجرى وقف : « لسان العرب » .

(٢) موكفة من الوكف . وهو الثقل والشدة « لسان العرب ج ٦ ص ٤٩٠٩ » .

ومرة دبيرة جائعة ، فى عنف ، وسير ، وكد عمل ، وهى دابة  
من الدواب .

فكذلك يصير العبد إذا راض نفسه بترك الشهوات ،  
وقطع الأسباب ، وانقطع عن اللذات ، ومجاهدة الهوى ،  
وامتناعه عما يريد ، حتى تذل وتنقمع ، فحينئذ ينقاد القلب  
والعقل ، وتستقيم فى سيرها على حد ما أمر به ، ولا تهاب  
أحدًا فى أموره ، ولا تخاف فيه لومة لائم .

وإذا نابته النوائب خاطر بنفسه فى ذات الله ، وأذنه مصغية  
إلى مولاه ، وقلبه شاخص إلى مشيئاته وإرادته ، وإلى ما يبرز  
له من حجب الغيب ، فيقبله بالطوع والهشاشة ، والانطلاق  
إلى ما يستعمله به ، وكيف ينقله من حال إلى حال ، فإن  
رأى نصرته عد ذلك منه فضلًا ورحمة .

وإن رأى خذلانه فزع إليه ، وألقى نفسه بين يديه ،  
صارحًا إليه ، مستغيثًا به ، فهو ولّى من أوليائه ، رفع باله  
عن نفسه ، فرمى بها إلى ربها ، فقالت : أنت ربى ، وأنت  
خلقتنى لما تشاء ، لا لما أشاء ، ولا علم لى بشأنى ، وبما  
فعلت لى ، ووجدتك أرفأ وأرحم لى منى بنفسى ، فرفعت

بألى عن نفسى ، وألقت بىدى إلك مسلماً ، فاقبلنى ، فإنك  
قد بينت فى تنزلك : ﴿ وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ  
مُحْسِنٌ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى ﴾ <sup>(١)</sup> ، وقد ألفت  
الخلق وراء ظهري ، فنظري إلك ، وقطعت الأسباب ،  
فتعلقى بك .

والله تبارك وتعالى قائم عليه ، يرعاه ويلكؤه ، ويؤيده  
وينصره ، ويقر عينه ، والعبد مشغول بربه ، ينظر إلى ملكه ،  
وينصر حقوقه ، ويحفظ حدوده ، ويعظم أموره ، ويذب عن  
دينه ما لا يحمل ، ويدعو عباده ، فهو وليه ، ورب العزة  
وليه ، وهذا شأنه حتى يلقاه .

وبيان صفة هذا العبد موجود فى الآثار ، حدثنا  
إسماعيل بن نصر ، قال : حدثنا أبو النذر القطعى ، . قال :  
حدثنا عبد الواحد بن حمزة ، عن مولى عروة بن الزبير ، عن  
عائشة ، رضى الله عنها ، عن رسول الله صلى الله عليه

(١) سورة لقمان ، من الآية رقم ٢٢ .

والمعنى : « ومن يتجه إلى الله بقلبه ووجهه ، ويفوض إليه جميع أمره ، وهو  
محسن فى عمله ، فقد تعلق بأقوى الأسباب التى توصله إلى رضا الله » انظر  
المنتخب من التفسير .

وسلم ، عن الله تبارك وتعالى ، وحدثنا إبراهيم بن المستمر البصرى ، قال : حدثنا أبو عامر العقدى قال : حدثنا عبد الرحمن بن ميمون مولى عروة ، عن عروة ، عن عائشة ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : حدثنى جبريل عن الله عز وجل - دخل حديث بعضهم فى بعض - أنه قال : « ما تقرب إلى عبدى بمثل أداء فرائضى ، وإنَّ عبدى ليتقرب بالنوافل حتى أحبه ، وما تقرب إلى عبدى بشيء من النوافل مثل النصح لى حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى به يسمع ، وبصره الذى به يبصر ، ويده التى بها يبطش ، ورجله التى بها يمشى ، ولسانه الذى به ينطق ، وفؤاده الذى به يعقل »<sup>(١)</sup> . فما ظننا بعبد يعقل بالله ، وينطق بالله ، ويسمع بالله ، ويبصر بالله ، ويمشى بالله ، ويمشى بالله ، كيف يكون سعيه وآثاره متقلبة فى الدنيا .

---

(١) أخرجه البخارى كتاب الرقاق ، باب التواضع ج ٨ ص ١٠٥ عن أبى هريرة ، وأشار ابن حجر فى « فتح البارى » ج ١١ ص ٣٤١ بتخرجه عن عائشة فى كتاب الزهد للإمام أحمد ، وأشار المناوى إلى تخرجه عند أحمد ، والحكيم ، وأبو يعلى ، والطبرانى ، وابن نعيم ، وابن عساكر ، وابن حبان .

قال له قائل : كيف يكون هذا ؟ قال : هذا عبد قد يسره ، وولى سياسته ، وحفظه ، ورعايته ، واستعمله ، فكان فى صنعه قد ألمات فيه الشهوات ، ويسر عليه الصعاب ، وبسط له النور ، ومد له فى الأسباب ، وألهمه وفهمه ، وصيّرهُ من أولى الألباب ، فإن نطق نطق بحكمة وإن أنصت أنصت بفكرة ، وإن نظر نظر بعبرة ، وإن مشى مشى بهيبة ، وإن بطش بطش بغلبة ، قد منع قلبه من التفكير ، وسلب فى الأمور التدبير ، وهذا كله موجود تحقّقه فى الكتاب والخبر .

فأما فى الكتاب فشان الخضر عليه السلام ، خرق السفينة ، وقتل الغلام ، وأقام الجدار ، فلو عمل فى الظاهر ، ما قدر على ذلك ، ثم قال فى آخر أمره ، ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ﴾<sup>(١)</sup> . فهذا من الله فى الباطن ، الذى يؤتیه من يشاء ، وقد قال فى ذكره له : ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِ لَدُنَّا عِلْمًا ﴾<sup>(٢)</sup> . فقد

(١) سورة الكهف - من الآية رقم ٨٢ .

(٢) سورة الكهف - الآية رقم ٦٥ .

بين أن هذا له من طريق العلم ، الذى علّمه ربه . وما ذكر من شأن ذى القرنين فقال : ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا \* فَاتَّبَعَ سَبَبًا ﴾ <sup>(١)</sup> . فأوتى العلم الذى لم يؤت غيره .

فإن قال قائل : فهل يجوز لأحد أن يفعل على ما يترأى له فى قلبه ، أو يقتدى بالخضر عليه السلام ، فيما يبدو ؟ قيل : لا ، قد ختم الله تعالى بالرسول محمد صلى الله عليه وسلم الرسالة ، ولم يبق فى الأرض بعده إلا المُلْهُمُونَ ، والمحدثون ، وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « قد كان فى بنى إسرائيل محدثون ، فإن يك فى أمتى أحد منهم ، فعمر بن الخطاب » <sup>(٢)</sup> وكان ابن عباس عندما يقرأ هذه الآية : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ ﴾ ولا محدث <sup>(٣)</sup> . والنبي دون الرسول بدرجة ، والمحدث دون النبي بدرجة ، وللرسول درجة الرسالة ،

(١) سورة الكهف - الآيتان : ٨٤ ، ٨٥ .

(٢) رواه البخارى .

(٣) سورة الحج - من الآية رقم ٥٢ .

وللنبي درجة النبوة ، وللمحدث درجة الحديث ، وقد أحكم الله بهذا الإسلام الذى ارتضاه لنا دينًا على لسان الكتاب والسنة ، ما ليس لأحد فيه استبداد ولا تجاوز ولا تقصير ، إنما هو حفظ الحدود ، واتباع الأمر على الجملة .

ثم الصديقون ، والملمهون ، والمحدثون أمور خارجة من الحدود والأحكام ، وهو تدبير الله عز وجل ، وكلاءه ، على ما ذكرناه بدءًا .

ولم نجئ بشأن ذكر الخضر هاهنا لنطلق لمن بعده مثله ، إنما أردنا أن نحقق أن لله عبادًا ، يضع عندهم من مكنون العلم ما شاء ، وأن لهم عنده من المنازل ما يتحقق عند من يفهم هذا ، أن ذلك الذى قلنا كيف يكون ، حتى به يسمع ، وبه يبصر ، وبه ينطق ، وبه يبطش ، وبه يمشى ، وبه يعقل .

فأما ما ذكر فى الأخبار ، حدثنا عمر بن أبى عمر ، قال : حدثنا الربيع بن روح الحمصى ، قال : حدثنا ابن عياش ، عن ضمضم بن زرعة الحضرمى ، عن شريح بن عبيد الحضرمى ، عن عبد الله بن زيد ، قال : قال لقمان عليه السلام : « ألا إن يد الله تعالى على أفواه الحكماء ، فلا ينطق



أحد إلا بما هياه الله له . وحدثنا أبو بكر بن سابق الأموى ، قال : حدثنا عمر بن عبید الطنافسى ، عن الأعمش ، قال : جاء رجل إلى عمر ، رضى الله عنه ، قال : إن علياً شجنى ، فقال عمر ، رضى الله عنه لعلى : لِمَ شججت هذا ؟ قال : إني مررت ، وهو مُقاوم امرأة ، فسأني مقامها<sup>(١)</sup> ، فصغيت لها ، فسمعت ما كرهت ، فشججته ، فقال عمر رضى الله عنه : « إن لله في الأرض عيوثاً وإن علياً من عيون الله » .

حدثنا عبد الجبار بن العلاء ، قال : حدثنا سفيان ، عن إسماعيل بن أبى خالد ، سمعه من قيس بن أبى حازم ، قال : عرض أبو بكر الصديق ، رضى الله عنه ، فرساً له ، فقال غلام من الأنصار : احملنى عليها يا خليفة رسول الله قال : لأن أحمل عليها غلاماً قد ركب الخيل بعدلته ، أحب إلى من أن أحملك عليها . فقال : لِمَ ؟ فوالله أنا خير منك فارساً ، ومن أهلك . قال المغيرة : فما ملكت نفسى أن أخذت برأسه فركبته ، فأقبل منخراه كأنهما عزلاء مزادة<sup>(٢)</sup> .

(١) أى ما هى عليه نتيجة لإساءة الرجل لها .

(٢) عزلاء مزادة : أى فم مزادة - والمزادة : وعاء الزاد والجمع العزالي .

قال : فبلغ أبا بكر رضى الله عنه أن ناساً من الأنصار يتوعدون المغيرة ، فقال أبو بكر رضى الله عنه : بلغنى أن ناساً من الأنصار يتوعدون المغيرة ، والله لا يخرجون من ديارهم أسرع من أقيدهم بروعة الله .

حدثنا الجارود ، عن يزيد بن هارون ، عن حماد بن سلمة ، عن هشام ، عن عروة ، عن أبيه ، قال : أرسل أبو بكر الصديق خالد بن الوليد رضى الله عنهما إلى بنى سليم ، فجعلهم في الحظائر<sup>(١)</sup> ، فحرقهم بالنار ، قال عمر رضى الله عنه لأبى بكر رضى الله عنه : تستعمل رجلاً يعذب بعذاب الله ؟ فقال أبو بكر رضى الله عنه : « دعنا عنك يا عمر ، والله لا أشيم سيفاً سله الله على المشركين ، حتى يكون هو الذى يشيمه » . وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لسعد بن معاذ ، رضى الله عنه : « لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرفعة » .

والرفيع : السماء ، والأرفعة : جماعة ، فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه أصاب فيهم حكم الله عنده ، وكان

(١) الحظائر جمع حظيرة وهى ما يدار حول الإبل وغيرها من خشب أو قصب لحفظها من البرد والريح .

حَكَمَ بَانَ تُقْتَلْ مَقَاتِلَتَهُمْ ، وَتُسَبِّى ذَرَارِيَهُمْ ، وَتَكُونُ الْغَنِيْمَةُ  
لِلْمُهَاجِرِينَ دُونَ الْأَنْصَارِ ، وَذَلِكَ فِي شَأْنِ بَنِي قَرِيظَةَ .

حَدَّثَنَا عَبْدُ الْكَرِيمِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ ، عَنْ  
عَبْدِ اللَّهِ ، قَالَ : أَخْبَرَنِي أَبُو بَكْرٍ بْنُ أَبِي مَرْيَمَ ، حَدَّثَنِي  
رَاشِدُ بْنُ أَبِي رَاشِدٍ ، قَالَ كُنْتُ مَعَ خَالِدِ بْنِ أَبِي مَعْدَانَ يَوْمًا  
فِي بَعْضِ أَسْوَاقِ الْمَدِينَةِ بِحِمَصَ ، فَإِذَا نَحْنُ بِنَصْرَانِي أَظْهَرَ  
الشَّرْكَ بِاللَّهِ تَعَالَى . فَقَالَ لِي خَالِدٌ : احْسِرْ عَنْ ذِرَاعَيْكَ ، ثُمَّ  
قَالَ لِي : دَقْ أَنْفَهُ ، قَالَ رَاشِدٌ : فَوَجَّأَتْ أَنْفَهُ أَنْ دَقَّقَتْهُ ،  
فَانْطَلَقَ النَّصْرَانِي فَاسْتَعْدَى عَلَيْنَا ، فَقَالَ الْوَالِي لَخَالِدٍ : مَا  
حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ ؟ قَالَ : أَرَاغِمُ اللَّهَ أَنْفَهُ وَأَنْفَ مَنْ ثَقُلَ  
عَلَيْهِ تَأْدِينُنَا لَهُ ، أَنَّهُ لَيْسَ لَهُمْ أَنْ يَظْهَرُوا شِرْكًَا وَلَا صَلِيًّا ،  
فَيَصْنَعُ هَذَا بِهِمْ ، حَتَّى يَكْفُوا عَنِ إِظْهَارِ الشَّرْكَ بِاللَّهِ عَزَّ  
وَجَلَّ .

حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي زِيَادٍ ، قَالَ : حَدَّثَنَا سَيَّارٌ عَنْ  
حَفْصِ بْنِ سَلِيمَانَ ، عَنْ مَالِكِ بْنِ دِينَارٍ رَحِمَهُ اللَّهُ ، قَالَ :  
رَأَى عَامِرُ بْنُ عَبْدِ قَيْسٍ ذِمِّيًّا يَظْلِمُ ، فَأَلْقَى رِدَاءَهُ فَقَالَ : وَاللَّهِ  
لَا تَخْفَرُ ذِمَّةَ وَأَنَا حَيٌّ<sup>(١)</sup> فَاسْتَنْقَذَهُ .

(١) لَا تَخْفَرُ ذِمَّةُ أَيْ : لَا تُنْقِضُ . وَمِنْ الْمَخْطُوطِ ط « تَخْفَرُ » لَا تَصَحُّ .

فإذا فطمت نفسك عن حرارة الهوى ، ووقعت حرارة  
 الفطام على قلبك ، فذابت تلك الأخلاط عن قلبك ، وظهر  
 قلبك ، وخرج صافياً كما خرج الذهب الذى أحمى ، فتهافت  
 عنه تلك الأوساخ والأدناس ، لأن للهوى على القلب أوساخاً  
 وأدناساً ، كما كان للمعاصى على القلب نكت سود ، على ما  
 جاء في الحديث عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال :  
 « إذا أذنب العبد نكت في قلبه نكتة سوداء ، فإذا عاد  
 نكت أخرى ، فإذا تاب ونزع صقل قلبه » <sup>(١)</sup> ثم تلا :  
 ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ <sup>(٢)</sup> .  
 فإذا ذهبت المعصية بالتوبة ذهب سواده ، وبقي دخانه ،  
 وذهب الشيطان وبقي ظله ، كما ذهب الليل وبقي  
 سدفه <sup>(٣)</sup> وآثاره عند وجه الصبح ، فإذا تاب عن المعصية ،

(١) أخرجه ابن ماجه فى سننه ، كتاب الزهد ، باب تكرار الذنوب جـ ١ ص  
 ١٤١٨ عن أبي هريرة رضى الله عنه ، ط عيسى البابي الحلبي ، وأخرجه الإمام  
 أحمد فى المسند وأخرجه الترمذى فى السنن تفسير سورة المطففين وقال :  
 حديث حسن صحيح جـ ٥ ص ٤٣٤ ط الحلبي ، وأخرجه النسائى فى السنن  
 الكبرى فى التفسير وفى عمل اليوم والليلة .

(٢) سورة المطففين الآية رقم ١٤ .

(٣) السدف : ظلمة الليل « انظر ابن منظور لسان العرب جـ ٣ ص

وهو ممن يستعمل الهوى ، فالهوى باقٍ بعد ، فهذا قلب قد تاب ، ولم ينزع ، فلم يصقل قلبه بعد .

وذلك أن المرأة المصقولة إذا نظرت فيها ، أرتك عن اليمين وعن الشمال ، وخلفك وأمامك ، فإذا قلبت بها إلى عين الشمس هكذا ، فلاقى نور المرأة نور الشمس ، وجدت الشمس تشرق في مكانك ، وفي بيتك ، فكذلك إذا صقلت مرآتك ، وهى قلبك ، نظرت عنها إلى الجنة والنار ، وإلى بهاء الحسنات ، وإلى جمالها ، ورفعة مرتبتها ، وإلى قبح السيئات ، وإلى الدنيا والآخرة .

وإذا نظرت فيها إلى تدبير خالقك ، تراءى لك عجائب ، وذلك النور الذى تجده عندك - إذا أقبلت بمرآتك إلى عين الشمس - ليس هو الشمس ، إنما هو نور حدث من بينهما ، فإذا صفا قلبك من الهوى ، حينئذ تجد اليقين ؛ لأن اليقين هو نور يحدث على قلبك من نور معرفتك ، ونور إلهك الذى هو نور السموات والأرض ، ونور كل شيء .

فإذا أقبلت على الله ، تبارك اسمه ، أشرق القلب بالنور ، فذلك اليقين ، وإذا كان بالمرآة صدأ ، فقلب بها إلى عين

الشمس ، لم يشرق في البيت منه شمس لأنه قد حال بين نور المرأة ونور الشمس ذلك الصدا .

فكذلك القلب إذا أقبلت على الله تعالى وعليه الهوى ، لم يشرق بالنور الأعظم ؛ لأن الهوى قد حال بين نور المعرفة ، وبين النور الأعظم ، وهو اليقين ، فإذا ذهب الهوى ، فنظرت له ، تلاقى النوران ، فأشرق في صدرك ، فأبصرته عين قلبك ، فصار يقيناً ، واليقين في لغة العرب هو الشيء المستقر الثابت ، تقول العرب ، قد يقن المار في الحفيرة . .

## صفة القلب

قال له قائل : اشرح لنا صفة القلب .

قال : القلب بضعة من لحم ، في جوف بضعة أخرى ، وهو الفؤاد ، ومعدن النور القلب ، ومنه قيل خبز فئيد ؛ لأنه في جوف الرماد الحار والجمر ، فالبضعة الخارجة هي الفؤاد ، وإنما سمي قلباً لأنه يتقلب ، وله عينان وأذنان وباب ، والصدر بيته ، وإنما سمي صدرًا لأن الأمور تصدر عنه ، فالنور الذي في القلب يعرف ربه لأنه نوره ، وهو حبة

القلب واشتقاق الحب منه ؛ لأنه وصل حبة قلبه ، ومنه قوله عز وجل : ﴿ حَبَبَ إِلَيْكُمْ أَلَّا يَمُنَ ﴾<sup>(١)</sup> أى أصوله إلى حبة القلوب ، ثم قال تعالى : ﴿ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ ولم يقل في فؤادكم ، ومما يحقق ذلك قول رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : « أتتكم أهل اليمن ، هم ألين قلوباً ، وأرق أفئدة »<sup>(٢)</sup> فوصف القلب باللين ، والفؤاد بالركة ، فالنور إذا خرج من باب القلب ، أشرق في الصدر ، فأبصر عين الفؤاد ذلك النور ، فإذا فكر في الجنة أو النار ، أو في شيء من أمور الآخرة ، وقع لتلك الفكرة ظل على الصدر ، فتمثل ذلك الشيء بين عيني القلب ، فصار كأنه ينظر إليه . وإذا ذكر الرب تبارك وتعالى ، لم يقع لذكره ظل على الصدر ، ولكنه يشرق النور ، ويتلأأ النور في الصدر ، حتى يكاد يغشى بصر القلب ؛ لأن النور إنما أشرق في الصدر ؛ لأنه نوره ، فإذا ذكر الأشياء ، فالأشياء مخلوقة ، فوقع للأشياء ظل ، فإذا ذكره تلأأ النور ، ولم يقع في الصدر ظل ، وهو بمنزلة قنديل

(١) سورة الحجرات - من الآية رقم ٧ .

(٢) أخرجه البخارى ج ٨ ص ٩٨ . ومسلم في كتاب الإيمان . باب تفاضل أهل الإيمان ج ٢ ص ٣٠ والترمذى في صحيحه ، والبيهقى والطبرانى ، وأحمد .

معلق فى البيت فحائط البيت يشرق عليه نور المصباح ، فإذا رفعت يدًا أو شيئًا بين الحائط وبين المصباح ، وقع لذلك الشيء على الحائط ظل ، وتمثل ذلك الشيء ، فإذا رفعت بين المصباح وبين الحائط مصباحًا آخر ، ازداد ذلك إشراقًا وضياءً ، ولم يتمثل على الحائط صورة ، ولا وقع ظل ، فهذا شأن القلب .

فإذا حمى بالفطام من الهوى فصفا ، صار كالذهب يخرج من النار ، فحينئذ يُحَكُّ بالحجر ، اختبارًا لجودته ، وذلك أن الذهب لاجتماعه وكثرته ، أراك لون حمرة ، بقوة بعضه من بعض ، وانضمام بعض إلى بعض ، فإذا حككت منه شيئًا بحجر وبقي بالحجر من ذلك شيء لطيف رقيق ، تبين لك جودته . إنه يريك فى حال الضعف والرقعة . ومن آية قواه أنه قوى الحمرة ، وأنه جيد ، وذلك الردىء المغشوش يريك حمرة ما دام كثير القدر ، كثير الوزن ، مجمع القوى ، فإذا حككته بحجر ، فبقى الذى على الحجر ، رأيت أنه أصفر ، فعرفت أنه ليس بجيد .

فكذلك القلب لا يتبين ما فيه حتى يُفْطَم ، ويريك أنه قد صفا بالفطام ، فحينئذ يحك بحجر البلوى فيختبر سكونه



بمن ، وإلفه مع من ، أباللّه سكونه ومعه إلفه ، أم لعطائه سَكَنَ ، ومع أحوال نفسه أَلَفَ ؟ فالحك هو النقصان ، فمن كان سكونه به ، وإلفه معه ، لم يتغير النقصان ، أعنى نقصان العطاء ، ولجزيله ، لأنه للنقصان والتجزيل يبين إلى ما سكنت ، وهل قطعت الهوى ، فهذه منزلة عبادتك له بما هو أهله ، وهو الذى يقال له : اعبد الله باليقين لا بالهوى ، واليقين عقيب الهوى . فكل ما نقص من هذا ازداد من ذلك ، فهما يتعاقبان أبداً .

ويقال : الصبر صبران ، صبر على الشدائد ، وصبر على ما يدعوك إليه الهوى ، طاعة كانت أو معصية . فإذا فطمت نفسك عن طاعة الهوى ، حتى صار لك عادة ألا تطيع الهوى فى شىء من الأشياء .

وإن أُبيح لك ذلك الشىء واستنار قلبك باليقين ، وهو نور مشرق فى الصدر ، وعينك تنظر إلى ذلك النور ، ونفسك يَقْظَى ، بقرب الله عز وجل ، كما قال عامر بن عبد قيس رحمه الله : « ما وقع بصرى على شىء إلا رأيت الله أقرب منه » وروى عن محمد بن واسع رحمه الله تعالى ، نحو من ذلك ، وإنما أدرك عامر هذه المنزلة ؛ لأنه راض نفسه ،

حتى صار بحال - حكى عن نفسه أنه قال : وجدت الدنيا أربعة أشياء ، فما زال يروض نفسه حتى أطاعه الهوى ، حتى قيل له حيث يريد الشام : كيف تبكى على أهل مصر ؟ قال : لأن بها إخوانى ، وبها كثرة تجاوب المؤذنين ، وبها ظمأ الهواجر . قيل له : فقد أُذِنَ لك ، أفلا ترجع ؟ قال : أكره أن أرتحل رحلة هوى .

وكما روى عن وهب بن منبه ، رحمه الله تعالى ، أن رجلاً قال لمعلمه : قد قطعت الهوى . قال : أتفرق بين النساء والدواء ؟ قال : نعم . قال : فأنت أوثقت الهوى ولم تقطعه .

وكما روى عن عيسى بن مريم عليهما السلام : هل يستوى عندكم هذان : كف من تراب ، وكف من ذهب ؟ قالوا : لا . قال : فهما عندى سواء . فهذا قَطْعُ الهوى .

قال له قائل : اشرح لنا هذا . وكيف يستوى هذان في قلب ؟

قال : إن الناس إنما فرقوا بينهما ، وفضلوا الذهب على التراب بالهوى ، لما رأوا منفعة الذهب ، فضلوه من أجل المنفعة .

فينبغي لمن أراد التخلص من هذا أن يروض نفسه ، حتى يرى بنور اليقين الأشياء كلها مستوية ، بمعنى أنها خلق الله تعالى ، ثم يرى المنازل التي أنزلها الله تعالى ، فبإنزاله إياها بين لها تلك المنزلة موافقةً له ، ولو شاء جعل المنفعة التي في الذهب في الزجاج وفي الحجر ، ولكان الذهب ساقط المنزلة عن القلوب ، ألا ترى أن عمر رضى الله عنه أراد أن يتخذ الدراهم من جلود البقر ؟

فإنما ينبغي أن تفضل عندك شأن الدينار والدرهم ، بما أنزل الله لا بهواك ، ألا ترى لو أن رجلاً آتى « سمرقند » بعض هذه الكور التي تجوز فيها هذه الفلوس ، كان للفلوس عنده قدر ، إن افتقدها حزن ، وإن وجدها فرح ، فإذا تحول إلى كورة لا تجوز فيها تلك الفلوس ، فلو رمى بها لم يبال ؟ فهذا مما يدل أن الذهب إنما عَظُم موقعه من القلوب لعظم منفعته ، بأنه صار ثمنًا للأشياء ، فمن أجل ذلك بغض الله تعالى كثيرًا من الناس من أجل أنهم رأوا منفعة الأشياء من الدينار والدرهم ، لا من الله عز وجل .

فينبغي لك أن تروض نفسك وتقطمها عن هذه الأشياء ، حتى يصفو قلبك ، ويسير باليقين ، حتى ترى الدينار

والدرهم خَلَقَيْنِ من خلق الله تعالى كسائر الخلق مبتدعاً ، ثم تنزلهما بالمنزلة التي أنزلهما الله تعالى ، فبإنزاله بفضلهما ، ويرى المنفعة التي فيهما من خلقهما ، فحينئذ يستوى عندك حالهما ، في أنهما خلقتان من خلق الله تعالى ، فهذا عندنا معنى قول عيسى بن مريم عليهما السلام .

فإذا غفلت عن النفس بعد رياضتها ، فلا تأمن أن تعود إلى بعض عاداتها ما دامت الشهوات منها حية ، والهوى قائماً ، ألا ترى أن القوس إذا تُرِكَ استعمالها وتعاهدتها وعتقت<sup>(١)</sup> ، وكيف يأخذ البيت الأسفل من البيت الأعلى ؟ فكلما رميت بها سهماً أخطأ الغرض ، كذلك النفس إذا تركتها حتى تقوى شهواتها ، ويشد حرها في الجوف ، وتقوى ظلمة الهوى ، أخذت من البيت الأعلى ، وهو نور العقل ، ونور المعرفة ، ونور الروح ، ونور العلم ، فتحرق بنيران الشهوات من هذه الأنوار التي في القلب بقدر قوتها . وإذا قويت بنيرات الشهوات ضعفت الأنوار ، فيظلم الهوى على اليقين ، فيتولد الشك على القلب من هذه الآفات ، فتغلب على القلب هذه الآفات .

(١) عتقت من العتيق . وهو القديم من كل شيء « لسان العرب » .

فمن هنا يُصْرَع ، فهذا هو القلب المصروع ، والمأسور  
فى يد هواها ، قلما خرج منه عمل من أعمال البرد ، ثم لم  
يصب الغرض ، فوقعت رميته يميناً وشمالاً ، وربما خرج منه  
فلم يبلغ الغرض لضعف القوس ، وذلك أنه رمى عن قوس  
قد أصابتها الآفات والعلل .

فكذلك آفة القلب الذى وصفنا ، ربما أردت برّاً ، مال  
بقلبك الهوى إلى الشهوات يميناً وشمالاً ، حتى تحيد عن السبيل  
والسنة ، وربما جاوزت الغرض ، وربما ضعف قلبك ،  
فعملت بغير نية ، فلم يبلغ عملك إلى ربك ، كما قصرت  
الرمية عن الغرض .

أفلا ترى كيف تعالج القوس ، وتحمى حتى تلين ، فإذا  
لانت سويت ، حتى يرجع البيت الأعلى إلى مكانه ، وإنما زال  
عن مكانه لأن البيت الأسفل لما قوى وصلب مُدّاً بالبيت  
الأعلى بفضل قوته ، فكذلك النفس لما قويت وصلبت  
شهواتها ، انتشرت وهاج هواها ، فأحرقت أنوار القلب ،  
والقلب هو رطب بالأنوار ؛ لأن النور هو من الله تعالى  
رحمة ، والرحمة باردة ، والقلب لين منقاد برطوبة تلك  
الأنوار .

فإذا احترق النور ، صلب القلب ، وقسا ويس ، فحف  
عن ذكر الله ، وَلَهَا عَنْهُ .

فالمشروح صدره للإسلام ، شرحه ربه ، ﴿ فَهُوَ عَلَى نُورٍ  
مِّن رَّبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ <sup>(١)</sup> فمدت  
النفس ألتها ، فصار فى سلطانها ، كما يحمى القوس حتى  
تلين ، ويتخلى عن البيت الأول .

كذلك تُراضُ النفس بأن تُحمى ، وهو أن يمنعها اللذات  
والشهوات ، فتُحرق ويصيبها حرقات منع الشهوات فى  
مصائبها ، فبتلك الحرقات تذلل وتنقمع ، وتلين ، وتتخلى عن  
القلب ، فيرجع القلب إلى مكانه بنور المعرفة ، ونور العقل ،  
ونور العلم ، ونور فوائد العطايا ، فكلما منعت النفس شيئاً  
من هذه الشهوات ، خلت عنه كما وصفنا ، وكلما أعطيت  
النفس منيتها قويت ، فصارت كالشجرة تثمر الحنظل ،  
والدفلى <sup>(٢)</sup> ، والمر ، والصبر ، والسموم القاتلة . فإن أردت  
ألا تنمو ، فالتدبير فيما عقل العبد وفهمه أن تحبس عنها الماء  
والسرقين <sup>(٣)</sup> والتراب الذى يلقى فى أصله ، حتى تيس ،

(١) سورة الزمر - من الآية رقم ٢٢ .

(٢) نوع من النبات مر الطعم .

(٣) أى : السرجين ، وهو الزبل الذى تسمد به الأرض .

فتصير جذعًا ، لا يثمر ، ولا يرجع عليك بالضرر .  
ثم لا يزال جذعًا يعترض بين عينيك ، يشغلك عما سواه  
من الأشجار ، فتشعل فيه نارًا ، حتى يذهب شخصه من بين  
عينيك ، فإذا هو قد ذهب أثره ، وذهب ذكره .

وكذلك النفس : فى التدبير ، أن تجس عن النفس لذاتها ،  
وشهواتها ، حتى تذهب ثمراتها من هذه السموم القاتلة التى  
تمت قلبك فى الدنيا ، فتصير أعمى من العميان فى الدنيا ،  
بصيرًا فى دين الله جل وعلا ، فتقبل على مزيلة وهى الدنيا ،  
وإنما هى قنطرة ، تداولتك أيدى أسود وأبيض ، وهو الليل  
والنهار ، حتى يؤدبك إلى الخالق البارئ ، المثيب المعاقب ،  
فتعظم ما صَغُرَ الله ، وتكرم من أهانه الله ، وتدنى من أقصاه  
الله ، وتتعلق بمن لا بد أن تفارقه ، وتعمر ما أذن فى خرابه .

فإذا ذهبت ثمراتها حُبست عنها الفكرة فيها ، والحديث  
عنها ، والتذكرة لها ، حتى تبيس ، ثم لا تزال تمنيه شهواتها ،  
قائمة بينك وبين ربك ، تفرح بالعطاء ، وترضى بما تُعطى  
به ، وتروم ما لم تعط ، وترى نفسها فى الأشياء ، فهى  
تجيبك وتشغلك .

حتى إذا مَنَّ الله عليك بنور اليقين ، فهي كالبرقة ، كما  
تشعل شجرك ناراً فيذهب أثره وذكره ، كذلك البرقة تحرق  
قائمة نفسك ، فيذهب أثرها وذكرها ، ويبقى والهًا منفردًا  
به ، فتكون الأشياء والأمور منك له وبه .

فإذا أهملتها ، وعجزت عن رياضتها ، رجعت بوبال  
عظيم ، تعرض عن دار دعاك إليها رب العالمين ، فقال تعالى :  
﴿وَاللَّهُ يَدْعُوهُ إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ﴾<sup>(١)</sup> ، أَمْنِكَ من آفاتِها ،  
فنسبها إلى اسمه السلام من بين الأسماء ، يُعلمك أن لسكانها  
السلامة من الآفات ، محشوة بالنعم ، مشحونة بالرضوان ،  
وتُلهى عنه باللعب والباطل .

كفى بهذه عارًا ، وأنت عبد ، سخر الله لك الخلق  
والخليقة ، لم تنل حتى تكون ما عشت قائمًا بتربية حقوقه ،  
ناظرًا لأموره ، معظمًا لشأنه ذاكرًا له ، ناشرًا عنه الجميل ،  
مشتاقًا بقلبك إلى لقائه ، فأقبلت على تربيتك نفسك وطلبك  
لها العز والجاه ، والمنزلة من الخلق ، والذكر على الألسنة .  
فهذه ربوبيته ، فكيف تتفرغ للعبودية من طلب الربوبية ،

---

(١) سورة يونس - من الآية رقم ٢٥ .



فاشتغلت عنه ، فسهوت ولهوت عن ربك الكريم ، الذى خلقت فسواك فعدّلك ، وجمّل صورتك ، ودعاك فأعطاك وحياك ، وأمّلك، ومَنّاك ، ومن عظيم الخطر ومن ظلمة الكفر نَجّاك .

فهذا الذى وصفنا من تركك الشهوات ، وتجنبك اللذات ، ليس تحريم الذى أحل الله به ، ولكن تأديب لنفسك ، ورياضة لها ؛ لأن هذه النعم ، إنما أُمّرت وأُذن لك فى تناولها ، على الأدب الذى أُدبّت به على لسان الكتاب والرسول ، فلما ساء أدبك لما فيه من أخلاط السوء ، التى مالت بك ، لم تجد بداً من أن تعظمها مرة ، حتى يجد القلب فراغاً إلى تعلم الأدب ، فتأخذ طريقاً ، فأما قلب معلق بالشهوات ، مأسور باللذات ، مقهور بالمنى ، محبوس فى سجن الهوى ، فى بئر مظلمة<sup>(١)</sup> ، فكيف يمكنه أن يتناول ما أعطى بإذن الله ، فإن بعض من خفى عليه هذا النوع من العلم ، كبر فى صدره هذا ، حتى ربما يفرح إلى الاحتجاج بقول الله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَبِيبَتِ مَآ

---

(١) فى الأصل « مظلم » .

أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١﴾ .  
 وبقوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ  
 وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾ (٢) . فهذا من الاحتجاج تعنيف ،  
 ومن القول تحريف ؛ لأننا لم نُردِّ بهذا التحريم ، ولكن أردنا  
 تأديب النفس ، حتى تأخذ الأدب ، تعلم كيف ينبغي أن  
 تعمل في ذلك ، ألا ترى إلى قوله جل وعلا : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ  
 رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ  
 الْحَقِّ ﴾ (٣) . فالبغي في الشيء الحلال حرام ، والفخر  
 حرام ، والمباهاة حرام ، والرياء حرام ، والسرف حرام .

فإنما أوتيت النفس هذا المنع ، من أجل أنها مالت إلى هذه  
 الأشياء بقلبها ، حتى تفسد القلب ، فلما رأيت النفس تتناول  
 زينة الله والطيبات من الرزق ، تريد بذلك تغنيًا ، أو مباهاة ،  
 أو رياء ، علمت أنها خلطت حرامًا بحرام ، فضيعت الشكر ،  
 وإنما رزقت لتشكر لا لتكفر .

(١) سورة المائدة - الآية رقم ٨٧ .

(٢) سورة الأعراف - من الآية رقم ٣٢ .

(٣) سورة الأعراف - من الآية رقم ٣٣ .

فلما رأيت سوء أديها منعتها ، حتى إذا ذلت وانقمعت ،  
ورآني ربي مجاهدًا في ذاته حق جهاده ، هداني سبيله كما وعد  
تعالى : ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ  
الْمُحْسِنِينَ﴾<sup>(١)</sup> . فصرت عنده بالمجاهدة محسنًا ، فكان الله  
معي ، ومن كان مع الله فمعه الفئة التي لا تُغلب ، والحارس  
الذي لا ينام ، والهادي الذي لا يضل ، وقذف في القلب  
من النور ، نورًا عاجلاً في دار الدنيا ، حتى يوصله إلى ثواب  
الآجل .

ألا ترى إلى ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم  
أنه قال : « إِذَا قُذِفَ النُّورُ فِي قَلْبِ عَبْدٍ انْفَسَحَ وَانْشَرَحَ » ،  
قيل : يا رسول الله ، فهل لذلك من علامة ؟ قال : « نعم ،  
التجافي عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ،  
والاستعداد للموت قبل نزوله » .

وإنما تجافي عن دار الغرور بما قذف في قلبه من النور ،  
فأبصر به عيوب الدنيا ودواهيها وآفاتنا وخدعها وخرابها ،  
فغاب عن قلبه البغى والرياء والسمعة والمباهاة والفخر والخيلاء

---

(١) سورة العنكبوت - الآية رقم ٦٩ .

والحسد ؛ لأن ذلك إنما كان أصله من تعظيمه الدنيا ، وحلاوتها في قلبه ، وحبها لها ، وكان سبب نجاته من هذه الآفات برحمة الله رياضته هذه النفس ، بمنع الشهوات منها .

وهذا في الآثار موجود قائم عن السلف ، قد سارت به الركبان ، من غير وجه . حدثنا محمد بن سهل ، قال : حدثنا عمر بن منصور القيسي قال : حدثنا عبد الواحد بن زيد ، عن الحسن ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه ذات يوم : « ماذا تقولون في صاحب إذا أنتم أكرمتموه ورحمتموه وأطعمتموه وسقيتموه ، دعاكم إلى شر غاية ، وإذا أنتم أهنتموه وأعريتموه وأجعتموه وأعطشتموه وأتعبتموه دعاكم إلى خير غاية ؟ » قالوا : يا رسول الله ، هذا شر صاحب في الأرض ، قال : « إى ، والذي بعثنى بالحق ، هى أنفسكم التى بين جنوبكم »<sup>(١)</sup> .

(١) انظر الحديث في كتاب « منازل العباد من العبادة » للحكيم الترمذى ص ٧٨ بتحقيق أحمد السايح ، ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ليس عدوك الذى إن قاتلك أدخلك الله به الجنة ، وإن قتلته كان لك نوراً ، ولكن أعدى عدو لك نفسك التى بين جنبك » ذكره النهائى فى الفتح الكبير ج ٣ ص ٦٠ - ٦١ . وكذلك ذكره صاحب فيض القدير ج ٤ ص ٣٦٧ .

وحدثنا صالح بن محمد ، قال : حدثنا أبو مقاتل ، عن ابن عون بن أبي راشد ، عن الحسن ، رضى الله عنه ، قال : بلغنا عن عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام ، قال فى خطبته : « لا تضر بن بكم الشهوات ، فإنها أشد حرًا فى الجوف من النار ، وأشد سكرًا من الخمر ، وإنكم لا تدركون ما تأملون ، إلا بالصبر على ما تكرهون ، ولا تنالون ما تحبون ، إلا بترك ما تشتهون » .

حدثنا عمر عن سهل بن تمام ، عن عمار بن منصور ، عن ابن عباس رضى الله عنهما ، عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال : « طهروا قلوبكم بقلة الطعام تصفو ، فترق وتصلب وتستعف » فصفاؤها لله ، وصلابتها فى الدين ، ورقتها للإخوان ، واستعفائها فى ذات الله تعالى .

فعالج قلبك حتى تعتقه من رق النفس بما وصفت ، فإذا كان كذلك صفا قلبك من كدورة الأخلاق ، وطهر من شهوة الآثام ، فاستقر اليقين فيه ؛ لأن اليقين لا يستقر حتى يرى مكانًا طاهرًا ، فتحيا القلوب وتصلب ؛ لأنه من الله قد قرب عبده واصطفاه ، فيصير حينئذ ما غاب عن العين من أمور الآخرة وأمر الملكوت ، بعين قلبه ، فهو كالبرق فى

ليلة ظلماء ، إذا برقت أبصرت بعين رأسك جميع ما غاب  
عنك في تلك الظلمة ، من بئر أو جُرْفٍ أو واد .  
أو ما ترى إلى حديث حارثة ، حدثنا بذلك عبد الجبار بن  
العلاء ، قال : حدثنا يوسف بن عطية ، عن أنس ، قال :  
بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشى إذ استقبله شاب  
من الأنصار ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « كيف  
أصبحت يا حارثة ؟ » .

قال : أصبحت مؤمناً بالله حقاً .

قال : « فانظر ما تقول ، فإن لكل قول حقيقة » .

قال : يا رسول الله ، عزفت نفسي عن الدنيا ، فأسهرت  
ليلي ، وأظلمات نهاري ، وكأني بعرش ربي بارزاً ، وكأني  
أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون ، وكأني أنظر إلى أهل النار كيف  
يَتَعَاوَنَ فيها .

قال : « عرفت فالزم ، عَبْدَ نَوَّرِ الله الإيمان في قلبه » .

فقال : يا رسول الله ، ادعُ لي بالشهادة ، فدعا له  
رسول الله صلى الله عليه وسلم<sup>(١)</sup> . فنودي يوماً في الخيل

(١) رواه البزار عن أنس والطبراني في الكبير من حديث الحارث بن مالك  
وسنده ضعيف .

وكان أول فارس استشهد ، فبلغ أمه ، فجاءت إلى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فقالت : يا رسول الله ، أخبرني عن ابني ، إن يك في الجنة لم أبلِّك عليه ولم أحزن ، وإن يك غير ذلك بكيت عليه ما عشت .

قال : « يا أم الحارث ، إنها ليست جنة ، ولكن جنة في جنان ، والحارث في الفردوس الأعلى » ، فرجعت وهي تضحك وتقول : بخ بخ لك يا حارثة .

أفلا ترى أنه لما راض نفسه بأن قال : عزفت نفسي عن لذات الدنيا وشهواتها ، فكأنى أنظر إلى عرش ربي ، فصارت الأمور الغائبة عنده معاناة ، فعمل على الحقائق وذهب الجهل ؛ لأنه من نصب وتعب ، وعمل على المعاناة ، زال الجهل عنه ، ومن عمل على غير المعاناة فهو في جهد عظيم ، ومخاطرة عظيمة من قبل نفسه ، إلا من عصم الله تعالى ؛ لأنه كالسائر في الظلمة ، أحياناً يمشى ، وأحياناً تنهشه حية ، أو تلدغه عقرب ، لا يبصر أين يضع قدمه ، فهذه مخاطرة .

وأما جهده ثقل نفسه ، فإنما ثقل أنه لم يعاين ما ثمة هذه الأمور ، وهو بمنزلة رجل قيل له : احمل هذه الحمولة ، فثقل عليه ، فهو يجد ثقلها على فؤاده .

فقليل له : احمِل ، ولك هذا الدينار ، فاستمر بالحمولة ،  
ونفض بأعباء ثقلها فوجد خفة الحمولة ؛ لأنه قَوَّى القلب  
بما عاين من الدنيا ، فقويت الأركان .

أو قيل له : احمِل هذه الحمولة ، فثقل عليه ، فَعَلَّاهُ  
بالسيف ، أو بشعلة نارٍ ، فخلص إليه الخوف فاحتمله ،  
فوجد خفيفاً ؛ لأن القلب قد عزم على احتماله ، هرباً من  
السيف .

أو قيل له احمِل هذه الحمولة ، فثقل عليه ، فقليل له : هذا  
الملك وأنت بعينه ينظر إليك ، فوجد القلب قد انتقل عن  
حالته ، إجلالاً للملك ، فاستمر بالحمولة وقوى القلب ، فإنما  
أدرك حمل هذه الحمولة بما عاين .

فكذلك صاحب النفس ، قد عاين ، وشاهد قلبه ، مما هو  
أكثر مما هاهنا من معاينة بصر الرأس في دار الدنيا ، فالقلب  
الموقن ، صفته إذا تناول النعمة فكأنما يتناولها من خالقه ،  
فيأخذها بجيأ ، ومرة بحلاوة ، ومرة بمهابة ، ومرة بخوف ،  
وإذا نزلت به بلية أبصر بنور يقينه إلى أموره ، اختار له هذا ،  
فظن به أحسن الظنون ؛ لأنه أيقن أنه به أرحم منه بنفسه



وأرأف ، فَأُثْمَنَ ربه ، واتهم نفسه ، وقال : ربي أعلم بما  
اختار لك ، فإن لم أصلح على اختياره وتقديره ، لم أصلح  
على اختيارك وتقديرك أيتها النفس ، واختيارك أنزل بي هذه  
البلية لإحدى خلال : إما تكفيراً لخطيئة استوجب بها هذا  
العذاب الأكبر .

وإما رفع لي درجة يقربني إليه ، وإما بينهما لأمر عظيم ،  
أو عصمني من ذنب ، أو صرف عني داهية ، أو عاجلني  
بعقوبة ، لأن يرفع عني عقوبة الآخرة ، ففي كل هذا خير .

وأما العارف فإنه أجمله ، فقال : هو مشيئة ربي ،  
فمشيئته أجَلٌ عندي ، وأعظم على قلبي من نفسي وجميع  
جوارحي ، وهؤلاء قوم ولهت قلوبهم لديه ، فصارت أحكامه  
التي رضىها لهم مَنية قلوبهم ، من إجلالهم له وإعظامهم .

## صفة الموقن

عدنا إلى صفة الموقن :

وإذا ذكر الرزق وثق بالضمان ، واطمأن بوفائه ، فإن  
طَلَبَ طَلَبَهُ مع سكون القلب ، على حد ما أَمَرَ به ، فإذا

عرض له في ذلك شيء يكون فيه نقصان من حظه من الله تعالى ، أعرض عنه ، وتوجه إلى ربه ، ينتظر من أين يُفتح . والعارف تخلص من هذا كله من الضمان والوفاء ، وشغل عن طلب الرزق بالرزاق ، فقلبه في البحر الأكبر ، وقد تعلق قلبه به ، فإذا ذكر المنة غرق ، وإذا ذكر العافية قلق ، وإذا ذكر حلول الأجل شرق ، وإذا ذكر العيوب عرق ، وإذا ذكر الرعاية والكلاءة ومق<sup>(١)</sup> ، وإذا رأى اللذات في الطاعة مئق<sup>(٢)</sup> ، وإذا ذكره تنق<sup>(٣)</sup> .

وإذا حن إليه واشتاق غرق في أثقال المنة ، وعظمت آماله فيما لديه ، وقلق من خوف زوال الإيمان ، وشرق بغصته من حلول الأحزان ، لطول الحبس عنه في دار الدنيا ، وغرق من الحياء لما يرى من عظيم بره ولطفه ، وجميل نظره ، وحسن عوائده ، ومن جميل صنائعه ، ومن هرب النفس منه ، وإعراضه عن حقوقه ، وإظهار جفوته .

وهو من عظيم عطفه عليه في كلاءته ورعايته ، واصطناعه إليه ، ومئق لما يرى من فتح باب الدعة ، وإكرامه بالطاعة ،

(١) ومق : أحب .

(٢) مئق : فرح .

(٣) تنق : شبع وارتوى ، وتأني بمعنى حزن وغضب .

وتقريبه إياه بما يمكن له من الخدمة ، وتتق من طول الغربة ،  
 وشدة الحنين ، فأنسه به ، وسكونه إليه ، وهو ملجؤه  
 وثقتة ، وكهفه وسنده ورجاؤه .

لا يهتمه على نفسه ، ولا يسىء به الظن في نوائبه ، بحسن  
 معرفته بربه أنه غفور رحيم ، ودود ، حميد ، مجيد ، واحد ،  
 صمد ، قيوم ، كفيل ، وكيل ، جواد ، كريم ، حنان ،  
 منان ، حي ، لا يموت ، لطيف بعباده ، بر رحيم ، شكور ،  
 غفور ، حلیم ، عَفُوٌّ ، رَعُوفٌ ، معروف بالمعروف ، محسن  
 مفضل ، فضله عظيم ، إحسانه دائم ، كرمه ظاهر ، فاطمأن  
 قلبه .

كما وصفه ربه ، فقال تعالى : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ  
 قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ <sup>(١)</sup>  
 وقال الله تعالى : ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ﴾ <sup>(٢)</sup> إلى آخر

(١) سورة الرعد - الآية رقم ٢٨ . والمعنى : إن هؤلاء الذين يرجعون إلى الله  
 ويقبلون على الحق هم الذين آمنوا ، وهم الذين تسكن قلوبهم عند ذكر الله  
 تعالى بالقرآن وغيره ، وإن القلوب لا تسكن إلا بذكر عظمة الله وقدرته ،  
 وطلب رضاه بطاعته ( المنتخب ص ٣٥٨ ) .

(٢) سورة الزمر - من الآية - رقم ٢٣ .

الآية ، فبين أن القشعريرة<sup>(١)</sup> إنما هي من الخشية ، فإذا ذكروه في كرمه وجوده ، ورأفته ، ورحمته ، لانت جلودهم وقلوبهم .

قال له قائل : فما بالناس نسمع هذا العلم فنفهمه ، ونَعْقِلُهُ ، ولا يبقى على القلب منه شيء ؟ .

قال : لأن نيران الشهوات في الخوف قد التهمت ، فهي نيران سود ، مظلمة بالهوى ، وهي مؤدية إلى نار الله الكبرى ، فإذا التهمت ارتفع إلى القلب ، وأحرق تلك الأنوار ، فخلا القلب من الموعظة والعلم الذى عليه ، وهي شبيهة بالنار التى تلهب حمرتها ، فتحتاج إلى ماء كثير حتى تطفئه ، كلما ألقيت عليه قبضة من شيء أو رششت عليه قليل ماء ، انطفأ قليلاً ثم التهب .

فكذلك صاحب الشهوة ، إذا سمع الموعظة ذُبل قلبه ، وتحسفت نفسه ، لما يصل إليه من الخوف ؛ لأن الوعيد مما تنكسر به النفس ، وتخمد شهواتها .

---

(١) القشعريرة من اقشعر الجلد ، إذا اضطرب وقام شعوره عليه « الفيروزابادى - وبصائر ذوى التمييز ج٤ ص ٢٧٠ » .

ألا ترى أن الرجل يكون في لذة من لذات الدنيا ونشاط ،  
فإذا بلغه وعيد من السلطان انكسر وذهب نشاطه ،  
فوعيد الله تعالى لو خلص إلى القلب ، لكانت النفس  
والشهوات أشد انكساراً ، ولكن لا يصل ذلك إلى القلب ،  
فهو صلب أبداً ، فرح مرح ، أشد بطراً ، فهو ينور بلهب .

فإنما يُطفأ بالماء الكثير الغالب ، وهو العلم المؤدى إلى  
الخوف والوعيد ، وليس يوجد هذا ، فمالحيلة في ذلك ؟

قال : إننا لا نعلم له حيلة ، إلا أن يمنع من إلقاء الحطب  
عليه ، فإنه متى زاده وقوداً اتقد ، وثار والتهب ، وقوى .  
ومتى ما حبس عنه وقوده خمد ، حتى يصير رماً ويذهب  
حر التنور ، كذلك هاهنا ، يحبس عنها الشهوات حتى  
تخمد ، فتذهب فورتها والتهابها ، فحينئذ تتخلص أنوار القلب  
ويقوى ، ويعمل العقل عمله .

ووجدنا في مبلغ علمنا أن الذي جاء في الحديث عر  
رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : « أن النار تنادى يو  
القيامة للمؤمن ، جُزْ يا مؤمن فقد أطفأ نورك لهبى » .

هذا معناه أن من عالج شهوات نفسه وهواه ، حتى يقهرها  
وتتخلص أنواره ويقوى على قلبه ، فقد أطفأ نور قلبه نيران  
شهواته المظلمة بالهوى ، فهو النور يوم القيامة ، حتى يطفئ  
ذلك النور لهب النار عنه .

ومن لم يعالج هذا من نفسه ، وخرج من الدنيا مع هذه  
النيران سوداء مظلمة ، خفت من ألا يقوى نوره على أن  
يطفئ لهب النيران على الصراط .

لأنه لم يكن له نور على القلب يطفئ نيران شهواته ،  
وخرجت منه أعمال البر محترقة مختلطة برياء ؛ لأن عامة ما  
يَصِلُ من الطاعات ، إنما يُعْمَلُ بهواه ، وبما يخف عليه ، وبما  
تنشط له النفس وتستحليه ، لا ينظر إلى ما يختار الله له ، ولا  
يقبل علمه من ربه ، إنما هو عامل لربه على التملك والاقتدار ،  
ولا خيار للأحوال ، حتى ربما حمله ذلك على ترك الواجب ،  
في جنب ما يتطوع به ، وهذا موجود في الخلق .

ترى الرجل يصلي بالليل ، ويعق والديه ، ويصوم النهار ،  
ويسوء خلقه ، في شأن فطوره ، وسحوره ، ويغتاب الناس ،  
وينفق في أعمال البر ، ويكتسب الشبهات ، ويعود المرضي ،  
وينقل الجنائز ، ويؤذى المسلمين ، ويطلب عوراتهم ، ويود

الأبعد ، ويقطع الأرحام ، فهذا رجل جاهل بربه ، يعبد به  
بالهوى ، كلما هوى أمراً ركبه ، وكذب فيما يقول : إني  
أريد به الله .

وإنما أتى فساد الخلق من إهمال النفس وترك تأديبها ، وقلة  
النظر في أمر الله تعالى ، وجهلهم به ، فلو عرفوه لاستراحوا  
من خدع النفس ودواهيها ؛ لأن النفس إنما تطمع بمخادعة  
من يجهل ربه ، فأما العلماء بالله ، العارفون بالنفس ،  
والشيطان أقل وأذل هناك أن يطمعها في خدعهم لأن النفس  
إنما تظلم وتوسوس على القلب الشهواني الذي قد أسره  
الهوى . وليس لنور الطاعة في القلب ، ما يغلب الهوى  
والشهوات ، وإنما القوة الغالبة ، نور المعرفة ، فمن استنارت  
معرفته ، كانت أموره على بينة ومعينة ، وذلك قوله تعالى :  
﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّنْ  
رَّبِّهِ ﴾<sup>(١)</sup> . . . الآية .

فوصف رسول الله ، صلى الله عليه وسلم علاماته بالإجابة  
إلى دار الخلود والتجافى عن دار الغرور ، والاستعداد

---

(١) سورة الزمر : الآية - رقم ٢٢ .

للموت قبل نزوله ، ومنه قول حارثة : كأني أنظر إلى عرش  
ربي بارزًا ، فقال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم :  
« عرفت فالزم ، من سره أن ينظر إلى عبد تَوَرَّ الله الإيمان  
في قلبه ، فلينظر إلى هذا » .

وما جاء عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، أنه قال  
له رجل عَلَّمَنِي غرائب العلم .  
قال : « ما صنعت في رأس العلم ؟ عرفت الرب ؟ »

قال : نعم .

قال : « فما صنعت في حقه ؟ »

قال : ما شاء الله .

قال : « هل عرفت الموت ؟ »

قال : نعم .

قال : « فما أعددت له ؟ » .

قال : ما شاء الله .

قال : « اذهب فتعلم رأس العلم ، ثم تعال أعلمك  
غرائب العلم » .



أفلا ترى أنه أمره بتعلم المعرفة ، وسماء رأس العلم ، فقد كان مسلمًا ؛ لأنه سألته أن يعلمه غرائب العلم ، وأنه كان أخبر بتلك المعرفة .

فلما سألته : هل عرفت الرب ؟ أجابه عن معرفته ، فلما سألته عن الامتحان عما صنع في حقه ، انقطع الرجل ، فقال : ما شاء الله .

وما جاء عن عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، حدثنا بذلك صالح بن محمد قال : حدثنا القاسم العمري ، عن عاصم بن عبد الله بن عامر بن ربيعة ، عن أبيه ، أن رجلا أثنى على رجل عند عمر ، رضى الله عنه ، فقال : صحبتته في سفر ؟ فقال : لا ، قال : فأتمنته على شيء ؟ قال : لا ، قال : ويحك ؟ لعلك رأيته يخفض ويرفع في المسجد .<sup>(١)</sup>

ومثل ذلك عندنا مثل رجل رأى قومًا لم يعرفهم إلا بالوجوه هكذا ، فتعرف أحوالهم ، فوصف له رجلا رجلا ، فقيل له : أما هذا الواحد فهو عالم لا يوجد له في الدنيا نظير لتبحره في العلم ، فعظم في عينه ، وأخذ من قلبه شعبة .

---

(١) هذا يشير إلى قول الرسول ، صلى الله عليه وسلم : « الدين المعاملة » .

ثم قال له : هذا الرجل الآخر غنى ، لا يوجد له في الغنى نظير ، فعظم في عينه ، وأخذ من قلبه .

ثم قيل له : وهذا الآخر كريم ، لا يوجد له في الكرم نظير ، فعظم في عينه ، وأخذ من قلبه ، وقيل له : هذا الآخر صانع الأشياء ، لا يوجد له نظير في كل صناعة ، فعظم في عينه ، وأخذ من قلبه وقيل له : وهذا الآخر كفيل ، يكفل الأراامل والأيتام ، والضعفاء والفقراء ، لا يوجد له نظير في رأفته ورحمته ، فعظم في عينه وأخذ بقلبه .

ثم قيل له هذا الآخر شكور ، عارف بالحقوق ، إن أتيت أدنى شيء شكرك الكثير ، ونشر عليك الجميل ، فعظم في عينه ، وأخذ من قلبه ، ثم قيل له : ولهذا مملكة وعز ومنعة وسُلطان ، قد ملك المشرق والمغرب ، فعظم في عينه ، وأخذ من قلبه .

ثم قيل له : وهذا قوى لا يُطاق ، له قوة ألف رجل من الرجال ، فعظم في عينه ، وأخذ من قلبه ، فكل رجل منهم يوصف بواحدة من هذه الخصال ، يأخذ من قلبك شعبة ، ويعظم في عينيك شأنه . وقبل ذلك لم يكونوا على قلبك هكذا .

فلو أن هذه الخصال كلها جُمعت في رجل واحد ، لكان  
يعظم في عينيك ، ويكبر شأنه في صدرك ، وتعظم منزلته  
عندك ، ويأخذ بقلبك كله ، فهذه الأشياء لو اجتمعت في  
رجل واحد كانت عارية ، وهي عطاء من ربه .

فعندئذ لا يكون من ملكه رأس إبرة ، وهو مخلوق يفنى  
ويبلى ، فكيف بالعالم الذي لا يشبه علمه وغناه ، وجوده  
وكرمه ، وحلمه ومجده ، وبهاؤه وجماله ، ورحمته ورأفته ،  
وقوته وقدرته ، وسلطانه وبصره بالأشياء - شيئاً مما عند  
الآدميين ، وإنما اتفقاً بالاسم .

فأما الأشباه فتعالى ربنا ، رب العالمين عن أن يشبهه شيء  
من خلقه ، فإذا عرفت هذا من ربك فكيف يكون على قلبك  
أموره ، ووعدده ووعيده ، وضمانه وكفالاته وقوته ؟

فمن استنار قلبه بالمعرفة سكن قلبه ، واطمأن إلى ربه ،  
ووثق بقوله ، فعظمت منزلة المؤمنين عند الله تعالى ، حين  
قبلوا الإيمان بالجملة ، ثم استأداهم الوفاء به عند النوائب ،  
فمنهم من وَفَّى ، ومنهم من سقط ، وبقي في الطريق ، فأظلم  
عليه الهوى ، ووقع من التخليط في الذنوب .

ومنه ما حذر الله صفيه داود عليه السلام ، فقال : ﴿ إِنَّا  
جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا  
تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾<sup>(١)</sup> .

فالإنسان مطبوع على سبعة أخلاق : على الغضب ،  
والرغبة ، والرغبة ، والشهوة ، والغفلة ، والشك ،  
والشرك . فالخلق كلهم أقروا بأن الله تعالى فطر الناس عليها .

ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا  
إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ \* سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ \* قُلْ مَنْ  
رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ \* سَيَقُولُونَ لِلَّهِ  
\* قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ \* قُلْ مَنْ يَدْعُو مَلَكَوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ  
يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ \* سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ  
فَأَنِّي تُسْحَرُونَ ﴾<sup>(٢)</sup> .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ

(١) سورة ص - من الآية رقم ٢٦ .

(٢) سورة المؤمنون - الآيات ٨٤ - ٨٩ .

وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِيَقُولَنَّ اللَّهُ ۚ فَاَنَّىٰ  
يُؤْفَكُونَ ﴿١﴾ .

﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مِّن نَّزَلٍ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأُحْيَا بِهِ  
الْأَرْضَ مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لِيَقُولَنَّ اللَّهُ ۚ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلَّ  
أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ﴿٢﴾ .

فأقروا له تعالى بالربوبية من غير عقل ، ثم أشركوا به غيره  
في ملكه ، فقال تعالى : ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ  
مُشْرِكُونَ﴾ ﴿٣﴾ .

فأقروا بالربوبية ، ثم اشركوا فيه ؛ لأنهم نطقوا من قلب  
مظلم ، وقد ضرب الله تعالى لهم مثلاً في كتابه فقال :  
﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَّشَوْا  
فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ ﴿٤﴾ .

(١) سورة العنكبوت - الآية رقم ٦١ .

(٢) سورة العنكبوت - الآية رقم ٦٣ .

(٣) سورة يوسف - من الآية رقم ١٠٦ .

(٤) سورة البقرة - من الآية رقم ٢٠ .

وقال : ﴿ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴾<sup>(١)</sup> .

فأقروا له بالربوبية ، ثم غفلوا عنه ونسوه ، فهذا الشك والشرك والغفلة فيه ، ثم الغضب مركب فيه ، والشهوة كذلك .

فالرغبة في النفس من قبل النفس ، والرغبة في النفس من أجل النفس .

والخلق بهذه الصفة من مات منهم ، فإن جهنم موعدهم ، لها سبعة أبواب ، لكل باب منهم جزء مقسوم ، فإنما قسمت على الأبواب هذه الأجزاء لهذه السبعة الأخلاق .

فكل من غلب عليه تُخْلَق من هذه الأخلاق ، تُسب إليه وأُلْقِيَ في ذلك الباب ، وعذب في ذلك الدَّرَك . وما يُصَدِّقُ ذلك ما جاءنا عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال :

« للنار باب لا يدخل منه إلا من شفى غيظه بسخط الله

---

(١) سورة البقرة - الآية رقم ١٧ ما عدا الكلمة الأولى ( مثلهم ) .

تعالى . حدثنا بذلك أبى - رحمه الله - قال : حدثنا عبد الله بن نافع الدينورى ، عن إسماعيل بن شيبه الطائفى ، عن ابن جريج ، عن عطاء ، عن ابن عباس ، رضى الله عنهما ، عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، قال : « مَنْ مَنَّ الله عليه من ولد آدم بالمعرفة وجعل له نوراً يمشى به فى الناس ، كان له ولياً ، يخرج به من الظلمات إلى النور ، وكان ميتاً فأحياه » ووصف ذلك كله فى كتابه ، فقال تعالى : ﴿ أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأُحْيَيْنَاهُ ﴾<sup>(١)</sup> .

وقال : ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾<sup>(٢)</sup> .

وقال : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُّورٍ ﴾<sup>(٣)</sup> .  
وقال : ﴿ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾<sup>(٤)</sup> .

- 
- (١) سورة الأنعام - من الآية رقم ١٢٢ .  
(٢) سورة البقرة - من الآية رقم ٢٥٧ .  
(٣) سورة النور - من الآية رقم ٣٥ .  
(٤) سورة النور - من الآية رقم ٤٠ .

فوصفه إلى آخر الآية وقال : ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ ،  
يُشْرَحْ صَدْرُهُ لِلْإِسْلَامِ ﴾<sup>(١)</sup> . ثم قال : ﴿ لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ  
عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾<sup>(٢)</sup> إخباراً عن المنة  
عليهم ، فلما استنار قلب المؤمن بالنور الذي أعطى ، نطق  
لسانه بتوحيده ، وعرف قلبه ربه ، وصدقته في وعده  
ووعيده ، فاستسلم وألقى يديه ، فذهب عن الشك والشرك  
والغفلة ، فتيقظ وأيقن وأخلص ، وبذل بالغفلة اليقظة ،  
وبدل بالشك اليقين ، وبذل بالشرك الإخلاص ، وبقيت فيه  
الشهوة والرغبة ، والرغبة والغضب .

وكلما ازداد العبد في إيمانه نوراً وقوة وشعاعاً ، تنقص  
من الغضب والشهوة ، والرغبة والرغبة ، فكل مؤمن على  
قدر إيمانه يكون من هذه السبعة باقية فيه ، يغفل عن ربه ،  
وتعثره الظلمة كالشك وليس بالشك ، ولكنه رية القلب  
واضطرابه وتغيره ، كالشرك وليس بشرك ، ولكنه شرك  
الأسباب الموضوعه ، فيتعلق بالأسباب ، ويكون اعتماد القلب  
على الأسباب ، وينسى ربه ، لا لأنه يجحده .

(١) سورة الأنعام - من الآية رقم ١٢٥ .

(٢) سورة الأنعام - الآية رقم ١٢٧ .



إذا ذكر أقر ، وإذا نسي تعلق قلبه بالأسباب حتى يفتتن ،  
والأسباب مثل الحصن ، يدخل فيه الخائف ، والسلاح يأخذه  
فيتقوى ، فيكون اعتماده على الحصن والسلاح ، وينسى ربه ،  
وكالدواء ، ليستشفى به ، فينسى ربه في شأن الرزق ، يطلب  
ويسعى ويغفل عن ربه حتى يفتتن .

فإذا ذكر لا يعمل فيه ذلك الذكر ، وجميع الخلق  
أسباب ، القلب حائل بينه وبين رؤيته ذلك من ربه ، وهو  
سبب المعصية والفتنة .

فإذا استنارت معرفته فعلت ، كانت كالشمس تشرق في  
قلبه بالأسحار ، ولا ظلمة ولا غبار ، فصارت الأشياء له  
معينة ، فتخلص القلب حينئذ من الأسباب إلى ولى  
الأسباب .

ومنه قول عيسى بن مريم ، عليه السلام : « لو أن رجلاً  
مستكمل الإيمان يهز جبلاً لزال عن مكانه » ومنه قوله لبعض  
الحواريين حين أراد أن يلحقه في البحر فيمشى على الماء معه :  
« هات يدك يا قصير الإيمان » . ثم مشى به في موج  
البحر .

فقال : خفت الموج ؟

قال : نعم .

قال : ألا خفت رب الموج ؟

ومنه قول رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : « مَنْ أَحَبَّ  
لِلَّهِ ، وَأَبْغَضَ لِلَّهِ ، وَمَنَعَ لِلَّهِ ، وَأَعْطَى لِلَّهِ ، وَنَصَحَ لِلَّهِ ، فَقَدْ  
اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ » .

ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : « قُلِ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ  
صِحَّةَ فِي إِيْمَانٍ ، وَإِيْمَانًا فِي حُسْنِ خُلُقٍ ، وَنَجَاحًا يَتَّبِعُهُ فَلَاحٌ ،  
وَمَغْفِرَةٌ مِنْكَ وَرَحْمَةٌ وَرِضْوَانًا » .

وفي هذا الباب حديث كثير عن رسول الله ، صلى الله  
عليه وسلم .

ومنه قول الحسن البصري - رحمة الله عليه - في تفسير  
قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا  
كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ ﴾ <sup>(١)</sup> ، قال : غير مستكمل الإيمان :  
﴿ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى \* جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا  
(١) سورة الأنبياء - من الآية رقم ٩٤ .

أَلَا نَهْرُ خَلِيدٍ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى ﴿١﴾ .

أى تطهر من الأسباب ، وهو هذه الأخلاق السبعة ، فهم أهل الدرجات العلى فى جنات عدن ، وهم الصديقون رفقاء الأنبياء .

فمن هاهنا قالوا بزيادة الإيمان <sup>(٢)</sup> ، سمو هذا النور الذى يزداد العبد بربه معرفة به ، إيمانًا كالشمس ، شعاعها الذى يقع بالأرض نسميه شمسًا ، والذى يطلع فى الجرى نسميه شمسًا ، لأن هذا منه .

ومنه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن من أمتى رجالًا حال بينهم العُرى عن أن يأتوا مُصَلَّاهُمْ ، يمنعهم إيمانهم أن يسألوا الناس ، منهم أويس القرنى ، وفرات بن حباب العجلي » رحمه الله عليهما . حدثنا الفضل بن محمد قال : حدثنا زهير بن حرب ، حدثنا ابن مهدي وعبد الله بن الأشعث ، عن سوار ، عن محارب بن دثار ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك .

(١) سورة طه - جزء من الآية رقم ٧٥ بعده الآية : ٧٦ .

(٢) والإيمان يزيد وينقص - كما قال الكثير من العلماء - قال تعالى فى سورة الأنفال - الآية الثانية - : ﴿ وَإِذَا ثَلَيْتَ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ .

فسموا هذا النور إيمانًا ، وذلك جائز في اللغة ، وعلى هذا تأويل قول الحسن رحمه الله : « غير مستكمل الإيمان » ، أى لم يستكمل النور .

فوجدنا التبهر في العلم بالله ، بحسن المعرفة ، يملأ القلب نورًا ، يحرق ذلك النور جميع نيران النفس ، من الشهوات الهاوية في القلب إلا الإخلاص والثَّمَكُثْ ، فلذلك تراه في الآخرة يطفئ نوره نيران الآخرة ، والتمكث على الجسر . وهكذا صفة المؤمن يومئذ على الجسر .

قلنا : كان أصل هذا الأمر والمدار عليه هو الإيمان به ، حسن المعرفة له كما وصفنا ، من السكون ، والطمأنينة ، لثقة به ، والركون إليه ، على قدر ضعف اليقين ، وقوته ، ذكرنا بدئيًا ، امتحن الله تعالى بفرائضه ، وحدوده ، أمره ، ونهيه ، ونهاهم عن أشياء ، وشهوات تلك الأشياء كبة فيهم .

وأمرهم بأمر ، فثقل عليهم إتيانها ، وحدّ لهم حدودًا ، مد لهم هواهم إلى مجاوزتها ، وإلى التقصير فيها ، والقيود عن إتمامها ؛ ليظهر ما في ضمائرهم ، ومقادير إيمانهم ، في الضعف ، والقوة ، لخلقهم من في السموات والأرض ،

والملائكة ، وسائر الخلق ، [ حتى <sup>(١)</sup> ] إذا رفع بعضهم فوق بعض في الدرجات لم ير أحد من خلقه من الملائكة ، والسموات ، والأرض ، وسائر الخلق أحكامه بين عباده إلا جميلاً .

وابتلاهم بالطاعة ، وبالحدود ، والفرائض ، والأمر ، والنهى ، فقال : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجْتَهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾ <sup>(٢)</sup> . أى يستخرج أسرار ضمائرهم حتى يكون عذرى يوم القيامة قائماً ، وأمرى ظاهراً ، فلا يرى خلقى منى ذلك إلا حسناً جميلاً ، ومعروفاً .

فلما عرف أنهم يضيعون حدوده وفرائضه ، من أجل الشهوات المركبة فيهم وضعف الإيمان ، وقلة اليقين ، علم أنه سيكون من هذا الخلق أمور تحدث أسبابها من الهوى ، والشهوات ، وقلة المعرفة ، بأمور ربه ، وضعف اليقين ، وزجرهم عن أشياء رحمة منه عليهم ، وتعظيمهم لهم ، لأن مَنْ آمن ، ودخل فى ولايته ، وحزبه ، صار سعيداً بجنته ، فحرّم

(١) فى الأصل : لكى .

(٢) سورة محمد - الآية رقم ٣١ .

دماءهم وأموالهم وأعراضهم ، بعضهم على بعض ، وحرّم عليهم الغيبة ، والبهتان ، والزور والتجسس ، وسوء الظن ، وهتك الستر ، وطلب العورات ، والجهر بالسوء ، والأذى ، وحرّم عليهم الزنى ؛ لأن فيه الغيرة والأذى بعضاً لبعض ، وحرّم الخمر ؛ لأن فيها الأذى ، وتلف النفس ، وإهلاكها ، وحرّم الربا ، ودل على المواساة ، والتقارض ، وقال : ﴿ وَلَا تَنسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ﴾ <sup>(١)</sup> .

ففى ذلك دليل على حَضُّهم ، ومنع بعضهم من بعض ، وحَضُّهم على البرِّ بعضهم لبعض ، إبقاءً عليهم ، ومرفقاً لهم ؛ لأنهم أهل خاصته وصفوته ، ودعاهم إلى الصلوات الخمس ليطهر أبدانهم ، ودعاهم إلى الزكاة ليطهر أموالهم ، ودعاهم إلى الجمعة ليطهر خطاياهم ، ودعاهم إلى الحج ليعتق رقابهم من عظامم الإثم ، ودعاهم إلى صلة الأرحام ليرحم بعضهم بعضاً فيرحمهم ، ودعاهم إلى الجهاد فيتخذ منهم شهداء ويرفعهم فى الدرجات .

ثم دعاهم إلى نوع آخر من العبادة ، دعاهم إلى بر الوالدين ليقوم بشكرهما من أجل التربية ؛ لأنه يبغض الكفور ،

(١) سورة البقرة - من الآية رقم ٢٣٧ .

ودعاهم إلى الإحسان إلى الجار ، وإلى ذى القربى ، وإلى  
الصاحب بالجنب ، وإلى الضيف والمملوك ، وكل هؤلاء أهل  
حقوق . ودعاهم إلى الإحسان إليهم ؛ ليكون ذلك شكراً  
لهم . فهذه الأشياء كلها عبادة تعبدتهم بها .

فأما أصل الأمر فهو ما وصفته لك فى أول الكتاب : أنه  
دعاهم إلى إحكام المعرفة حتى يسكنوا إليه ، فقلب العبد من  
قبل أن يؤمن أغلف ، وللقب عين ، وآذان . فإذا كان العبد  
من خلقه الله تعالى للرحمة ، وسبقت له منه الحسنى ، جعل  
له ذلك النور ، كما نطق به الكتاب ، فقال : ﴿ أَوْ مِنْ كَانَ  
مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ ﴾<sup>(١)</sup> . أى بذلك النور ، وهو قوله :  
﴿ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ ﴾<sup>(٢)</sup> .

ولا نرى ذلك النور إلا ما جاءت به الأخبار عن رسول  
الله ، صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله خلق الخلق فى  
ظلمة ، ثم رش عليهم من نوره ، فقد علِمَ من يصيبه ومن  
يخطئه ، ثم أخرجهم يوم الميثاق بيضاً وسوداً ، ثم استنطقهم

(١) سورة الأنعام - من الآية رقم ١٢٢ .

(٢) سورة الأنعام - من الآية رقم ١٢٢ .

يومئذ . فبلغنا عن ابن عباس رضى الله عنه ، أنه قال :  
 فأقروا له بالربوبية طوعاً وكرهاً وتقية ، فذلك قوله تعالى :  
 ﴿وَلَهُ اسْلَمَ مِنَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾<sup>(١)</sup> ،  
 حدثنا بذلك عن ابن عمر ، وعن أسباط ، عن السدى ، عن  
 أبى صالح ، وأبى مالك ، عن ابن عباس . ثم قال تعالى :  
 ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُّورٍ﴾<sup>(٢)</sup> . وقال :  
 ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ﴾<sup>(٣)</sup> .

فلما حى القلب بذلك النور صار سمياً بصيراً . وروى  
 عن الحسن - رحمة الله عليه - تفسير هذه الآية : ﴿وَتُنذِرَ  
 بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾<sup>(٤)</sup> . قال : صُمُّ آذَانِ الْقُلُوبِ . وعلى تأويل  
 قوله تعالى عندنا : ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا﴾

(١) سورة آل عمران - من الآية رقم ٨٣ .

(٢) سورة النور - من الآية رقم ٤٠ .

(٣) سورة الزمر - من الآية رقم ٢٢ .

(٤) سورة مريم - من الآية رقم ٩٧ .



وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١﴾ . وقال تعالى : ﴿لَيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٢﴾ .

فالْحَيُّ هو المؤمن ، فلما صار قلب هذا العبد منورًا بما رحمه الله ، وقسم له في سابق علمه ، صار القلب بلا غلاف ، وأذن له ربه بالإيمان به ، قال تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ ﴿٣﴾ .

فذكر هاهنا الإذن للنفس ثم ذكر القلب ، فقال : ﴿حَبَبَ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ ﴿٤﴾ . فذكر تعالى فعله بالقلب ماذا فعل ، وذكر فعل النفس أنها قد آمنت ، وبماذا آمنت ، فخرج القلب من الغلاف ، كسحابة انقشعت عن شمس ، فاستنار ، وسمع عن الله تعالى ، وأبصر الغيب ، فصار مجتبي

(١) سورة الأعراف - الآية رقم ١٩٨ .

(٢) سورة يس - الآية رقم ٧٠ .

(٣) سورة يونس - من الآية رقم ١٠٠ .

(٤) سورة الحجرات - من الآية رقم ٧ .

من أهل جباية الله تعالى ، وذلك قوله عز وجل :  
 أَجْتَبَبَكُمْ ﴿١﴾ . وصار موسومًا بسمة الله ، وهو ذلك  
 الذى أصابه .

فلما أهينت النفس ، وانقادت للقلب ، قبل القلب  
 عن الله ، وأبصر بالغيب ، وَعَقَلَهُ ، وعزم عليه  
 موسومًا بِسِمَةِ الله ظاهرًا وباطنًا ، فقيل : هذا مؤمن  
 مسلم ؛ لأنه قد آمن ، ولأنه قد أسلم وجهه إلى الله  
 أسلم الوجه إليه ، فقد أسلم إليه بِكُلِّه ؛ لأن الو-  
 جامع .

ألا ترى أنك تقول فى اللغة للسائلين بين الناس  
 وجوهًا كثيرة ، فنخل فيه البدن كله . والمؤمن إذا آم  
 أمره ، فإنه يعمل على تسليم نفسه إليه ؛ لأن إيمانه  
 بأنه ربه ، فرقته له ، وجميع ما ملكت يمينه له ، و  
 إليه نفسه وملك يمينه ، فهو المسلم ، قال تعالى : ﴿ هُ  
 الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ ﴾ ﴿٢﴾ . أى فى اللوح المحفوظ

(١) سورة الحج - من الآية رقم ٧٨ .

(٢) سورة الحج - من الآية رقم ٧٨ .

هَذَا ﴿﴾ يعنى : فى القرآن ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ .

أى : إذا جاءت الأنبياء ، فسئلوا عن تبليغ الرسالة ، فادعوا البلاغ ، فأنكرت الأمم ، وقالوا : لم تبليغنا رسلك أمرك ، فنسلم أنفسنا وملك يميننا لك ، ونأتمر بأمرك ، فأنتم أهل تسميتى ، الذين سميتكم مسلمين ، بأنكم قد سلمتم إلى أنفسكم فيشهد لكم بذلك الرسول ، الذى بعثه بالمقام المحمود ، الذى يغطه الأولون والآخرون ، فبليغنا فى الحديث : « وتشهدون أنتم لرسلى على أمهما التى لم تسلم لى نفسها ، فهذا صرتم شهداء رسلى ، وحجتى على خلقى » . فلما فتح القلب عينه أبصر وسمع لما حَبَّبَ إليه الإيمان ، أى وصل إلى حبة قلبه ، وتزين ذلك فى قلبه ، انقاد لربه ، ألقى بيديه إلى ربه مسلماً ، جاءت النفس بظلمها وظلمتها ، وهى الهوى ، فوقفت بين يدى القلب ، صار على القلب كالغشاء أو كالسحابة المظلمة ، فقيل غفلة ، والأول كانت غفلة .

فلما ذهب الغفلة ، حيث جاء النور ، وبقي الهوى غفلة . وقد نجد مثل هذا كثيراً فى اللغة ، يقال : جذب وجذب وكشر

وشكر ، وزرق ورزق ، ومجر ومرج ، وحجج وجحد ، وعلم وعمل ، وغرف وغفر ، ومثل هذا كثير<sup>(١)</sup> ، كلاهما مرجعهما إلى معنى واحد ، ولكنهما اشتقّا فاستعمل هذا في نوع ، وهذا في نوع ، والآخر في نوع . وإن كان القلب يختلف على فعل وعفل ، فإن الاشتقاق من معنى واحد ، وتُحولف في القلب للاستعمال في نوعه ، يُعرف باختلاف القلب نوعه الذى عنى به .

وكذلك الفعل أيضاً مثلهم ، فقيل : كشر إذا تبسم فبدت أسنانه ، وإذا بدا لقلبه فرأى نعمة إليه من الأسباب شكر ؛ لأن النعم قد بدت له ، وكذلك قوله : رزق .

هذا فيما بدا إليه من الأسباب في مطعمه ومعاشه ، وهذا فيما بدا إليه بالسبق ، فيرزق به .

وكذلك يقال في الحربة والمزراق ، فكذلك الغفلة والغلفة ، معناه عندنا أن الغلفة في وقت الكفر ، والكفر هو الغطاء<sup>(٢)</sup> ، فإذا ذهب تلك الغلفة ، ورفع الله الغطاء بمجىء

(١) راجع ابن منظور : لسان العرب .

(٢) انظر الفيروزابادى و « بصائر ذوى التمييز » ج٤ ص ٣٦١ .

النور ، بقيت الغفلة ، وهو الهوى ، قائمًا فيما بينه وبين ربه .

وكان للقلب حجابان : حجاب غطى ظلمة الكفر ، فإذا ذهب الغطاء بقي الحجاب الآخر قائمًا بينه وبين ربه تعالى ، فهو الذى يغفله وينسيه ، وهى التى تسمى غفلة ، فلما صارت هذه النفس قائمة بظلمة هواها ، وتلظى نيران شهواتها بين قلب العبد وبين ربه ، بعد أن أسلم له وانقاد ، واعترف وقبل أمره وعزم عليه ، فهو يتعاصى عليه وتستأديه الشهوات التى حرمت عليه ، وتزلزله فى شأن الرزق وتوسوس إليه فى نوائبها وأمورها على تدبيرها المنكوس ، وجهلها المظلم ، والرب الرحيم الرءوف به قد اختار له غير ذلك ، مما هو أرفق به وأبر له وأزين به وأفضل .

فقد شغل القلب النظر إلى ما يبدو له من تضاربه وتدبيره له ، فحديث النفس وسوسة تدبيرها ، وخيبته ومنتته ، وأشقته وأهنته ، وأظلمت عليه الصدر ، وهى سلاح عدوه الشيطان الرجيم ، بها يخدعك ويوسوس لك ، ويزين لك ، ويعين هواك عليك .

فلذلك قيل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن  
أَعْدَى عَدُوِّكَ نَفْسُكَ الَّتِي بَيْنَ جَنْبَيْكَ »<sup>(١)</sup> .

فلما كنت بهذه الحالة وقد أَلْقَيْتَ بِيَدَيْكَ إِلَى اللَّهِ سَلَمًا ،  
بِمَا جَعَلَ فِي قَلْبِكَ ، أَمَرَكُ بِمُجَاهَدَتِهِ ، فَقَالَ تَعَالَى :  
﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ﴾<sup>(٢)</sup> .

وَأَنْبَأَكَ فِي كِتَابِهِ شَأْنَ النَّفْسِ وَالْهَوَى ، فِي آيٍ كَثِيرَةٍ ، مِنْهَا  
مَا ذَكَرَ عَنْ قَوْلِ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، حَيْثُ قَالَ : ﴿ وَمَا  
أُبْرِيئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ  
رَبِّي ﴾<sup>(٣)</sup> .

وَحَيْثُ قَالَ لِدَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي  
الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ  
عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾<sup>(٤)</sup> . . . . الآية . وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ وَأَمَّا مَنْ

(١) ذكره النبهاني في الفتح الكبير ج ٣ ص ٦٠ عن ابن مالك بن الأشعث ،  
وكذلك ذكره صاحب فيض القدير ج ٥ ص ٣٦٧ .

(٢) سورة الحج - من الآية رقم ٧٨ .

(٣) سورة يوسف - من الآية رقم ٥٣ .

(٤) سورة ص - من الآية رقم ٢٦ .

خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ، وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿١﴾ . الآية .  
 فأمره بالمجاهدة ، حق المجاهدة ، ثم أيدنا وشجعنا فقال  
 تعالى : ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ  
 الْمُحْسِنِينَ﴾ (٢) . فسماه محسنًا ، ووعدته أن يكون معه ، ومن  
 كان الله معه فهو المنصور لا يُغلب .

فوعدك على المجاهدة حق جهاده ، أنه هو الذى يلى  
 هدايتك سبيله ، هذا ثوابه فى العاجل ، فكيف بثوابه فى  
 الآجل ، إذا قدمت عليه غداً بالمجاهدة وبثمرة المجاهدة ؟  
 فإن الهداية صارت ثمرة المجاهدة ، وبالهداية نلت ولاية الله  
 تعالى ، وبولاية الله نلت قرينة الله وزلفاه ، ثم قال تعالى :  
 ﴿هُوَ أَجْتَبَاكُمْ﴾ (٣) . أى كما جعلتك من أهل جبايتى ،  
 جعلت لك نورًا ، وفتحت عينى قلبك ، وفتحت أذنى قلبك  
 حتى عرفتنى .

فالآن جاهد فى ذاتى هواك وشهوات نفسك ، حتى يظهر  
 انقيادك لأمرى ، ويعزز دينى ، وتعلو طاعتى ، والمجاهدة على

(١) سورة النازعات - من الآية رقم ٤٠ .

(٢) سورة العنكبوت - الآية رقم ٦٩ .

(٣) سورة الحج - من الآية رقم ٧٨ .

قالب المفاعلة ، والمفاعلة لا تكون إلا من اثنين ، إلا في النادر  
في الكلام ، فأما العام فإنه من اثنين ، فكأنه قال :  
﴿ وجاهدوا في الله حق جهاده ﴾ .

وقال في آية أخرى : ﴿ واعتصموا بالله ﴾ ، أى امتنع  
من شر النفس وحرها وعداوتها بالله تعالى ، فكأن النفس  
عدوك ، يرميك بسهم الشهوة ، والهوى يقويها وهى  
مظلمة ، لا تستعين بالله عليك ، وأنت ترميها بسهم المعرفة  
والعقل ، وتستعين بالله تعالى عليها ، فأنت المنصور ؛ لأنك  
بالله تجاهدها ، وهى تجاهدك لا بالله .

فذلك ربك على الاعتصام منها به ، ثم وعدك النصر ،  
وشجعك على المجاهدة فقال : ﴿ هو مولاكم ﴾ أى يلى  
نصركم ، ثم قال : ﴿ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾<sup>(١)</sup> ، ينبئك  
وهو يملك كثرة النصر ، ومتابعتها .

فإذا تركت الاعتصام به خذلك ، وخذلانه أن يمنع  
النصرة ، فإذا منع النصر فجاهدت النفس ، رمتك بسهام  
الشهوة والهوى ، فرميتها بسهام المعرفة والعقل لم تغلبها

(١) سورة الحجج - من الآية رقم ٧٨ .



وغلبتك ؛ لأن العلم والعقل والمعرفة في القلب ، والهوى  
والشهوة خارج من القلب ، قائم بين القلب وبين الرب ، قد  
أظلم على سمعك وبصير عيني قلبك بغشاوته ، فسجن ما  
في القلب ، وغلب على القلب ، فصار بمنزلة سراج في بيت ،  
والسراج في الفخار وعليها غطاء ، فالبیت مظلم . .

فإذا انكشف الغطاء ، أبصر ما في البيت ، مما يضر  
وينفع ، فإذا جاهدت النفس ، فاعتصامك به في ذلك ،  
ذكرك إياه بأنك لا تستطيع دفع هذا إلا به ، واستغناك به ،  
هو الذى يغنيك ويعينك ، فينصرك ، وكيف لا يعينك وقد  
أمرك بأن تقول : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ <sup>(١)</sup> ؟

فيأمرك بالقول بهذا حتى تسأله ثم لا يجيبك ، وقال  
تعالى : ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ <sup>(٢)</sup> .  
ثم لا يجيب ولا يكشف ، تعالى الله عن ذلك ، وإذا نسيته  
في ذلك الوقت ، منع النصرة ، لترتكب ذكرك ، ولاقتدارك  
في الأمر .

• (١) سورة الفاتحة - الآية رقم ٥ .

• (٢) سورة المل - من الآية رقم ٦٢ .

وكيف لا يعاقبك بمنع النصره وقد نسيته ، واقتدرت في أمره ، وقد أمرك بأن تقول : لا حول ولا قوة إلا بالله ، فمن اقتدر في أمره ، والأمر كله لله ، والخلق لله ، والقدرة لله ، عوقب بأن يخذل ، وعرف بالخذلان أن اقتداره كان خطأ ، وأنه لا يقدر إلا به ، وقال تعالى : ﴿ إِن يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ <sup>(١)</sup> .

## النصرة

قال له قائل : فما النصره ؟ هل يمكن أن تُوصف ؟

فقال : إن نور المعرفة في القلب ، حتى يخرج إلى عين القلب ، والهوى قائم على القلب حجاباً ، فإذا جاهد العبد هذا الهوى حق المجاهدة ، وحق جهاده هو غاية طاقة العبد ، فنصرته أن يهديه سبيله ، وهو أن يجعل له طريقاً

---

(١) سورة آل عمران - من الآية رقم ١٦٠ .

من قلبه إليه ، حتى يصير عين قلبه ، كأنه يراه من غير كيفية .

وهو قول جبريل - عليه السلام - لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، حيث سأله عن الإحسان ، فقال : « أن تعبد الله كأنك تراه »<sup>(١)</sup> . وقال في حديث آخر : « إن أقواماً أيقنت قلوبهم ، حتى كأنهم عبدوا الله على رؤية » .

قال ابن عمر ، رضى الله عنهما في حديث : « إنا كنا نترأى الله تعالى بين أعيننا في الطواف » . حدثنا بذلك قتيبة ، عن محمد بن منير ، عن نافع ، عن ابن عمر .

وقال في حديث حارثة ، حيث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كيف أصبحت ؟ » قال : مؤمناً حقاً . فسأله عن الحقيقة ، فقال : « كأني أنظر إلى ربي على عرشه » ، هذا في رواية ، حدثنا أبي ، عن ابن أبي حبيش ، عن عبد العزيز بن أبي دؤاد . وأما رواية ثابت عن أنس ، فإنه روى : « كأني أنظر إلى عرش ربي » وهذا النوع في الآثار كثير .

---

(١) البخارى ج٨ ص ٥١٣ ، ومسلم ج١ ص ٣٩ ، والترمذى ج٥ ص ٦ وأبو داود وابن ماجه .

وإنما أدرك هذا حارثة بمجاهدات النفس ، ألا ترى إلى قوله : « عَزَفْتُ نَفْسِي عَنْ شَهَوَاتِ الدُّنْيَا وَلِذَاتِهَا » فهذا قطع الهوى ، فإذا قطعه هداه الله طريقه ، فإذا نظر صار كأنه يراه بلا كيف ، وهكذا وعد في كتابه ، فقال : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾<sup>(١)</sup> .

فإذا هداه طريقه ، لم يبق على قلبه حجاب للشهوة والهوى ؛ لأنه فتح طريق قلبه إليه ، فحينئذ يمكنه السكون إليه ، ويطمئن القلب ، ويثق بوعدده ، ويأتمنه على نفسه ، ألا ترى إلى قول الرسول صلى الله عليه وسلم حيث حكى عنهم ، قالو : ﴿ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا ﴾<sup>(٢)</sup> . . الآية .

فأخبروا أنهم إنما قدروا على التوكل ، وهو تفويض أمر النفس إليه ، بأنه هداهم لسبيله ، فزال الحجاب ، أعنى الهوى والشهوات ، عن بصر القلب ، فلم يبق بين يدي قلوبهم شيء يحجبهم ، فصارت الأمور لهم كالمعاينة والمشاهدة ، ألا ترى

(١) سورة العنكبوت - من الآية رقم ٦٩ .

(٢) سورة إبراهيم - من الآية رقم ١٢ .

إلى قول رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، حيث وصف القلب ، فقال : « أبصر الغيب بالغيب فأمن » ، أو كما قال . فهذه نصرة الرب عز وجل .

فإذا تركت المجاهدة على الحقيقة منعك النصرة ، فبقيت مخدولاً ، مأسوراً في يدي الشهوة والهوى ، فإذا صار القلب مأسوراً ، فهو كملك مأسور في يد العدو ، فإذاً تعذر عليه الأعوان والجند ، بل يذلون وينهزمون في الملاحى والأباطيل .

## المجاهدة

قال له قائل : فكيف تكون المجاهدة على الحقيقة ، إذ قال : « حق جهاده ؟ » .

فقال : اعتبر مجاهدًا الظاهر ، وامثل رجلين ، أحدهما سلاحه تام ، وحمل نفقة سنة ، وتجهز بما يحتاج إليه ، ورافق في الطريق رفقاء ، وتبسط في مسيره وطرب مع رفقائه ، وتلذذ برؤية الكون ولقاء الناس .

وفرح بما تُسب إليه من الجهاد ، والغزو ، فقل : هذا فلان الغازى ، وطمعت نفسه في علو المرتبة ، وارتفاع المنزلة

عن الناس ، واتخذ الجاه عندهم بذلك ، ونال الكرامة في مسيره مقبلاً ومدبراً ، وقلبه هاهنا معلق بحب الدنيا ، وما خَلَّفَ فيها ، فهذا حاله في الطريق حتى إذا بلغ المنتهى ، فعلى وده أنه لا يلقى عدوًّا أبداً ، ولا يسمع بذكره ، فهو مقيم هناك مع حنين قلبه إلى شهواته ومناه التي خلفها وراء ظهره .

حتى إذا لقي العدو ، وجاهد مجاهدة مراوغ ، ليس له صدق القتال ، يريد الروغان<sup>(١)</sup> . والنكص على عقبه ، والهرب ، حتى إذا انقضى الجهاد مر منصرفاً مسرعاً ، إلى شهواته ، التي حن إليها ، وإلى مأواه الذي قد ألفه ، ووطنه الذي قد استوطنه ، قد سلم بنفسه ، وسلم سلاحه ودوابه وعامة نفقته ، فجاء به كما ذهب به إلا النفقة ما أنفق في مسيره ، وما أنفق أيضاً فقد طرب إليه وتلذذ ، وقضى مناه وشهواته بتلك النفقة .

فهذا قد سمى فعله هذا جهاداً ، فلم يكفر فعله ، بل يُعطى ثواب نفقته غداً ، وثواب عنائه وتعبه ، وأنه كثر سواد المسلمين وأعانهم ، وشايعهم .

---

(١) راغ يروغ روعاً وروغاناً : حاد . وراغ إلى كذا أى مال إليه سرّاً وحاد . « لسان العرب » .

وَرَجُلٌ أَخَذَتْهُ حِمْيَةُ الْإِيمَانِ ، فغَارَ لِرَبِّهِ ، فخرج يقصد  
 محاربة عدو ربه انتقاماً وتعظيماً على عدوه ، أو رجل أيسر  
 من نفسه ، أن يخرج منه خير ينجو به ، ورأى قبح مذاهبه ،  
 وسوء فعالة ، فضاق به الأمر من شراهة نفسه ، وقلة ضبطه  
 لها ، فاغتاظ منها ، وحمى لربه على نفسه ومقتها ، وهاله عظيم  
 خطره منها ، فقدمها إلى العدو لتحاربه ، لعله أن يُرَزَّقَ  
 الشهادة فيقتل ، ويغسل بدمه سائر جسده ، حتى يلقي الله  
 تعالى طاهراً من أقدار المعاصي .

فهذا رجل خرج بهذه النية ، أو بتلك النية التي غار بها  
 لربه وحمى له ، وهو أرفع درجة من هذا الذي برم بنفسه ،  
 وأراد التطهر ، فلما لَقِيَ أَحَدُ هَذَيْنِ الْعَدُوِّ ، ونهيمته في عامة  
 مسيره المحاربة - إمّا غير لربه وحمية ، وإمّا تطهيراً لبدنه ،  
 والظفر بالشهادة - ظهر منه صدق اللقاء ، فبادر وحارب  
 وجاهد ، فلم يلبث أن صار قتيلاً ، وبالدماء مزمولاً ،  
 وتبددت أعضاؤه من الضرب والطعن ، وتبدد سلاحه  
 هكذا ، وهكذا ، من نهية العدو ، وأخذت دوابه وجميع ما  
 هناك ، وتقبل الله روحه ، فجعله حياً يرزقه عنده ، فرحاً  
 مستبشراً بما آتاه الله من فضله ، كما وصف تعالى في تنزيله

قصة الشهداء ، فقال :

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ ﴾<sup>(١)</sup> . إلى آخر الآية .

فصار روحه مقبولا وصار عنده حيا فريحا ، مستبشرا  
مرزوقا ، من غير تعب ولا كد ولا عناء ، فهذا حق الجهاد  
في طلب الجهاد ، والأول رجل متحرر للخير ، طالب  
للثواب .

فكذلك جهاد النفس حق جهاده ، أن يصدق اللقاء ، فلا  
تسلم منه نفس ولا مال ، فإذا أخذ في المجاهدة تخلصت الهموم  
والأحزان إلى النفس ، وانقطعت اللذات والشهوات ، وتغير  
اللون ، ونحل الجسم ، وضعف البدن ، وذهب الفرح  
والتسلط ، واشتغل القلب ، فضعف عن طلب الدنيا .

قد خلص النكص في المال ، وتعطلت الأمور ، ووجد  
المكاسب والأرباح ، وأدبرت الدنيا عنه بيهجتها ، وزينتها ،  
ولذتها وعزها ، وبهائها وملكها ، وصفوها وخدعها ،

---

(١) سورة آل عمران - من الآية رقم ١٦٩ .



وأقبلت الآخرة بحقائقها ، من البكاء والأحزان ،  
والاستكانة ، والصلاة ، والصيام ، والذكر ، والقرآن ،  
وأعمال البر ، فَشُغِلَ عن الأهل ، والولد ، وعن التلذذ  
بقربهم ، والأنس بهم .

فصار الولد يتيماً ، والأهل كالأرملة ، والمسكن وحشاً ،  
وتعطلت الأوقات التي كان يتلذذ فيها عند الغداء والعشاء ،  
وتبدل بها جوعاً ، وبيساً ، وبالضحك بكاءً ، وبالفرح  
حزناً ، وبالسرور غموماً ، وبالراحة نصباً ، وبالنوم سهراً ،  
وبالدعة تعباً وضيقاً ، وبالغنى فقراً ، وبالعزيز ذلاً ، وبالمدح  
ذمّاً ، وبالثناء طعناً وعبثاً ، فلم تسلم نفس ولا مال ولا جاه ،  
ولا قَدْرٌ إلا ذهب كله .

فهذا قتيل الله قد تبددت نفسه ، وشهواته ، ومناه ،  
وصار هواه كالقتيل ، فتخلص روحه عن هواه ، فتقبل الله  
روحه ، وأحيا قلبه ، ورزقه من حيث لا يحتسب ، ووصل  
بقلبه إلى إلهه ، ففرح واستبشر ، فقلبه عنده فرح مستبشر ،  
حي ، فمن هاهنا برز الصديق على الشهيد لأن الشهيد  
احتسب بنفسه على الله تعالى مرة واحدة ، حتى قُتل .

والصَّدِّيقُ يحتسب نفسه ، فلم يزل يقاتل هواه في كل حركة ، حتى قتل الهوى فخلص روحه وقلبه من الهوى ، فهذا غاية الصدق ، فسمى صِدِّيقًا ؛ لأنه لم يبق في نفسه منازع ، فصار البدن كله لربه مبذولاً بصدق منه ، لا منازعة للهوى فيه ، فكما صار الصَّدِّيقُ عنده في الآخرة حيًّا مرزوقًا ، صار بالصدق هاهنا في القلب به مرزوقًا ، فرحًا مستبشرًا بما آتاه الله من فضله .

كما صار الشهيد في الآخرة بعد أن وصل إلى النعمة يشتهي أن يُردَّ إلى دار الدنيا فيقتل فيه ، فصارت منيته كذلك الصَّدِّيق ، ماتت شهواته ، فصارت منيته ، ونهمته في ذكره وعبادته ، ومنه قوله تعالى في بعض الكتب : « أيها الصديقون تَنَعَّمُوا بذكرى ، فإنه لكم في الدنيا نعيم ، وفي الآخرة جزاء » .

حدثنا ابن أبي زياد ، قال : حدثنا سيَّار ، عن جعفر بن سليمان ، عن مالك بن دينار ، رحمه الله تعالى ، قال : قرأت في بعض الكتب : « إن سَرَّكَ أن تحيا وتبلغ علم اليقين ، فاحْتَلْ في كل حين أن تغلب شهوات الدنيا ، فإنه من يغلب شهواته الدنيا يَفَرِّقُ الشيطان مِنْ ظِلِّهِ » .

أفلا ترى أنه قال : إذا غَلَبَتْ شهوات الدنيا حَيِّتَ ؛ لأن القلب إذا كان في ظُلْمة الهوى وغفلته ، كان كالميت ، وليس بالميت ؛ لأن الميت قلبُ الكافر ، وقلبُ الغافل كالميت ، وليس به حياة ، وقال : إذا فعلت هذا بلغت علم اليقين ، فَعِلْمُ اليقين أن تعبدَه سبحانه كأنك تراه .

وكذلك وصف الله تعالى علم اليقين في تنزيله ، فقال : ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ \* لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴾ <sup>(١)</sup> . فأخبر تعالى : أن بعلم اليقين ترى الأشياء : ﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا ﴾ ، أى غداً ، يعنى الجحيم ، ﴿ عَيْنَ الْيَقِينِ ﴾ <sup>(٢)</sup> . فهذا حق الجهاد ، وأما الآخر فإنه رجل أراد مجاهدة نفسه ، فصام أياماً ، ثم ترك ، واجتنب بعض الشهوات ، وتناول بعضاً ، وحزن مرة ، وفرح أخرى ، وبكى يوماً ، وضحك أياماً ، وصام وصلى ، وساح مرة هكذا ، ومرة هكذا ، وحمل على نفسه مؤثلاً كثيرة ، وأتعب نفسه من طريق أنواع البر ، من سهر الليل ، والحج والجهاد .

(١) سورة التكاثر - الآية رقم ٥ ، ٦ .

(٢) سورة التكاثر - الآية رقم ٧ .

إِلَّا أَنْ ذَلِكَ كُلُّهُ بَهْوَاهُ عَمَلٍ ، حَيْثُ طَرِبَ وَنَشِطَ ، لَا بِمُجَاهِدَةٍ ، فَهَذَا رَجُلٌ يَرِيدُ أَنْ تَسْلَمَ لَهُ نَفْسُهُ وَمَالُهُ ، وَيَقْضَى شَهْوَاتُهُ وَمَنَاهُ ، وَيَكُونُ مُخْلِصًا ، فَهَذَا غَيْرُ مُحَقِّقٍ جِهَادَهُ ، يُعْطَى ثَوَابُ هَذَا التَّعَبِ وَالْعَنَاءِ ، وَيُؤْجَرُ عَلَيْهِ ، وَلَكِنْ لَمْ يَحَارِبِ الْهَوَى ، فِي كُلِّ مَوْطِنٍ حَتَّى يَقْتُلَهُ ، فَيَكُونُ قَتِيلَ اللَّهِ تَعَالَى ، يَقْتُلُ رُوحَهُ ، فَيَحْيِيهِ وَيَفْرَحُهُ بِنَفْسِهِ ، فَالْحَرْبُ مِنْ عِنْدِكَ وَالنَّصْرُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ، فَإِذَا تُصِرَّتْ قَتَلَتْ هَوَاكَ ، وَتَخْلُصَ رُوحَكَ مِنْهُ وَقَلْبَكَ ، فَقَبْلَهُ ، وَحَيَّاهُ ، وَتَوَرَّاهُ ، وَهَدَاهُ ، وَاجْتَبَاهُ ، وَرَعَاهُ .

## الهوى

قال له قائل : وما الهوى<sup>(١)</sup> ؟ .

قال جوهرة النفس ؛ لأنَّ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ خُلِقَ مِنْ تَرَابٍ ، فَكَانَ الْهَوَى هُوَ عُنْصُرُهُ الَّذِي فِيهِ جَوْهَرِيَّتُهُ التَّرَابِيَّةُ ، فَكَانَتْ تِلْكَ التَّرَابِيَّةُ مُتَشَعِّبَةً فِي النَّفْسِ ، وَهُوَ صَفْوَةُ غِذَاءِ

---

(١) ذكر الحكيم الترمذى في كتابه « منازل العباد من العبادة » المنزلة الخامسة تحت عنوان منزلة قطع الهوى انظر « منازل العباد من العبادة » ص ٨٥ .

الأم ، والهوى تنفس النفس ، وهو كدورته ، وأصل  
جوهريته ، وهو مظلم ، وهو قوة غذاء الأم .

لأن التراب مظلم ، وأملك إنما ربتك من اللبن ، ومما  
أخرجت الأرض ، فلذلك قيل فى الحديث : « لكل شيء  
نَفْسٌ ، ونَفْسُ النَّفْسِ الهوى » ، فما دام الروح فيك فأنت  
كون الروح ، فإذا خرج الروح منك ، صار وجهك وجميع  
جسدك كأنه ذر عليك التراب .

لأنه لما زال الروح تغير الجسد إلى جنسيته الترابية ، فقد  
علم شهوات الأرض ولذاتها ، وعرفها بذلك العنصر المظلم  
المتشعب ، هناك له ميلان ، يهوى إلى جنسه ، فَسُمِّيَ هَوًى ؛  
لأنه تَهْوَى به النفس ، والنفس تَهْوَى بالقلب ، والقلب يَهْوَى  
بالأركان إلى العقل ، والعقب يَهْوَى بجميع الجسد غذا إلى  
النار .

فمن هاهنا هواك يميل بك إلى نعيم الأرض ؛ لأنه من  
جنسه .

وإليه يحن ، وله يألف ، فهذه النفس مضطربة إذا حملت  
عليها أمر الله تعالى ، كذلك الأرض لما حمل عليها الخلق

اضطربت ، فَأُسْكِنْتَ بِالْجِبَالِ الرُّوَاسِي حَتَّى سَكَنْتَ .

كذلك النفس ، إذا اضطربت فَأَيُّمَا تَسْكُنَ بِالْمَعْرِفَةِ ، فكلما كانت معرفتك أعظم وأثقل على القلب ، كانت النفس أَسْكَنَ ، ومنه قيل : الإِيْمَانُ أَثْبَتُ فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْجِبَالِ الرُّوَاسِي ، فحب المحمّدة ، والرياسة ، والعلائق ، والعلو ، بشهوة العز ، وإنما أحب العز واشتهاه ، لاستدامة نعمة النفس .

لأنه قد علم أنه إذا عَزَّ وعلا على الخلق أدرك مناه ، وجميع ما للجسد والنفس فيه لذة ، ويكون قد قهر الخلق كلهم ، حتى يكون كله على ما يريد ، لا يخالفه أحد ، فينال لذة جميع ما يهوى ، فيدعوك الهوى ، ويميل بك إلى طلب اللذة ، وقضاء الشهوة .

فإذا خاف ألا ينال ما أراد قهر الخلق كلهم ، وقد علم أسباب القهر أنه إنما يكون بأخذ قلوبهم ، أو بخوف في قلوبهم منه ، لما يرون من عِزِّهِ ، ونفاذ قوله وأمره ، فلما فهمت النفس أن نوال اللذات والشهوات ، التي هي النفس ، علمتها في أخذ قلوب الناس ، إما بمحبة مكتسبة ، أو بتزئير

عندهم ومدحة ، حتى ينظروا إليك بعين التعظيم ، وإما بعمل يخافونك عليه ، أحببت العز ، واشتهيته وطلبتة .

فهذا كله إنما حصل منك من أجل نوال الشهوة واللذة ، التي في نفسك ، حتى تظفر به ، فما ظفرت به فقد سميت<sup>(١)</sup> عليه ، وفرحت وبطرت وأشرت ، وما لم تظفر به ، طلبت العز ، وهى المتعة ؛ لتقهر الناس ، وتأخذ بقلوبهم ، حتى لا ترد في أمر شئتته ، أو هويته وأردته .

## ثمرة الهوى

قال له قائل : فما ثمرة هذا الهوى ؟

قال : ثمرة أن يدعوك إلى أن تدعى الربوبية ، فمن هاهنا ادعى فرعون الربوبية ، حتى يكون نافذ القول فى شهواته ومنه ، جائز الأمر ، دعاه ذلك إلى أن قال : ﴿ أَنَا رَبُّكُمْ  
الْأَعْلَى ﴾<sup>(٢)</sup> . هذه ثمرة .

(١) السمن : نقيض الهزال والسمن خلاف المهزول « لسان العرب » .

(٢) سورة النازعات - من الآية رقم ٢٤ .

ومن هاهنا ضاق الأمر بنمرود ، حتى احتال للقعود في  
التابوت ؛ ليطير به إلى الخالق الأعلى ، زعم أنه يحارب<sup>(١)</sup> إله  
السماء لم يحتمل للضيق الذى حل به من قوة شهوته ، وإرادة  
إنفاذ مناه ، أن يسمح يذكر أحد غيره يقدر على شيء .  
فأراد أن يطمس هذا الذكر ، فأرى أهل مملكته أنه حاربه  
فقتله ، بما رجع إليه من السهم المدمى .

هذا ثمرة الهوى الذى يهوى بك إلى قضاء الشهوات ،  
ودرك ما هو من جنسه ، فاحذروه ، فإن الصغيرة الضعيفة  
منه تقوى حتى تصبح كبيرة قوية ، ترمى بك فى أودية  
المهالك ، والمؤمن أنقذه الله تعالى بالمعرفة من أن يدعى  
الربوبية ، أو يقصد لمحاربتة ؛ لأن نفسه قد أيقنت فأيست  
عن هذا المعنى ، ولكن تطلب ما دون ذلك فى أموره ، فليس  
هذا له بحقيق ولا خليق .

فقد حصل من جميع ما وصفنا إلى هذه الغاية أن ظلمة  
هذه النفس الشهوانية قد استولت على القلب ، حتى عجز

---

(١) فى الأصل : « زعم أنى أحارب » .



عن حفظ الحدود ، وألا تنهى عما زجرت عنه ، وإثارة ما  
أمرت به ، وعن أداء الحقوق ، وعن القيام بشكر إلهك  
فحالت تلك الظلمة عن رؤية الوعد والوعيد ، وعن رؤية  
ربوبيته الظاهرة عليك ، وقدرته النافذة فيك ، وفي الأشياء  
كلها ، فافترق الناس في هذا الخطب العظيم فرقتين :

فمنهم من أقبل على الحمية ، ورفض الشهوات ، وآثر  
التنغيص على جميع لذات النفس ، حتى ذل له وانقمع ، فقوى  
على وثاقه ، ثم قوى على قطعه فقطعه ، فأشرقت شمس معرفته  
من قلبه ، وهو النور الذى فيه ، فأضاء كل شيء ، رأى  
بذلك النور الربوبية الظاهرة ، والقدرة النافذة ، والسلطان  
القاهر للأشياء ، وجرى الأشياء كلها مشيئاته . وإراداته  
فاستقام ، ولم يبق من الهوى والشهوة حركة تميل به ، وتهوى  
هكذا وهكذا ، عن مشيئات ربه ، وما استنار من قدرته  
النافذة ، وربوبيته الظاهرة .

ومنهم من ضعف عن هذه الأمور ، لم يقدر على رفض  
الشهوات ، وقطع الهوى ، فما زال مفكرًا فى قدرته ، ومعتبرًا  
أمور الله - عز وجل - بقلب فارغ ، يريد الخير ، مقبل  
على الله تعالى بمجهوده ، فكان يزداد بذلك كل يوم يقينًا ،

وقوة نور في تلك المعرفة ، حتى غلب نور المعرفة ظلمة  
الهوى ، فحرقه ومزقه وبدده ، فاستكان لربه في أموره .

ومنهم من كان هكذا في جهد وطلب ، فأدركته رحمة الله  
تعالى ، فجذب قلبه جذبة إليه ، فصار من الله بمحل ومكان ،  
بقطع الهوى ، فصار ذكاً ، واستنار القلب بما فيه ، وذات  
النفس من حلاوة قرب الله عز وجل ما لهيت به عن جميع  
شهوَات الدنيا ، فصار الهوى والمنية والفرح والسرور ، درك  
ما نال من قرب الله عز وجل ، فنجا من هذا ، ولا قوة  
إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه  
وسلم .

( تم الكتاب بحمد الله ومنه )



## المصادر والمراجع

- الحنبلى : العارف بالله عبد الكريم بن إبراهيم الجبلى
- مراتب الوجود - ط مكتبة الجندى بمصر .
- الحسينى : عبد المجيد هاشم وكيل شيخ الأزهر
- أصول الحديث النبوى - ط دار الطباعة المحمدية ١٩٨٢ .
- الحسينى : الدكتور عبد المحسن
- مقدمة كتاب « حقيقة الآدمية » للحكيم الترمذى ، نشر مجلة كلية الآداب جامعة الإسكندرية ، الجزء الثالث
- . ١٩٤٦ .
- المعرفة عند الحكيم الترمذى - ط القاهرة ١٩٦٨ .
- الحكيم الترمذى : أبو عبد الله بن على المتوفى سنة ٣٢٠هـ
- أبواب فى صفة العلم - محفوظ بمعهد المخطوطات رقم ١٠٤ .
- إثبات العقل - مخطوط ولى الدين رقم ٧٧٠ .
- الاحتياطات - مخطوط باريس رقم ٥٠١٨ .
- آداب المريدين وبيان الكسب - تحقيق الدكتور عبد الفتاح
- بركة - ط السعادة بمصر .

- الأكياس والمفترين - مخطوط معهد المخطوطات العربية رقم ١٠٤ . تم تحقيقه بمعرفتنا .
- الأمثال من القرآن والسنة - تحقيق على محمد البجاوى - ط دار نهضة مصر .
- بدو شأن أبى عبد الله - مطبوع ضمن ختم الأولياء .
- بيان العلم - مخطوط .
- بيان الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب تحقيق الدكتور نقولا هير - ط عيسى البانى الحلبي ١٩٥٨ مصر .
- تحصيل نظائر القرآن - تحقيق الأستاذ حسنى نصر زيدان - ط المساعدة ١٣٩٠هـ .
- الحج وأسراره - تحقيق الأستاذ حسنى زيدان - ط دار السعادة بمصر .
- حقيقة الآدمية - ط مجلة كلية الآداب جامعة الإسكندرية - مجلد سنة ١٩٤٦ .
- ختم الأولياء - تحقيق الدكتور عثمان إسماعيل يحيى - ط المطبعة الكاثوليكية ببيروت .
- خمس رسائل للحكيم الترمذى - تحقيق الدكتور عبد الفتاح بركة - ط مجلة أصول الدين بالقاهرة المجلد الاول .
- الرد على الرافضة - مخطوط
- الرد على المعطلة - مخطوط بمكتبة الإسكندرية رقم ١٤٥ .

- شفاء العلل - مخطوط رقم ٧٧٠ ولى الدين
- الصلاة ومقاصدها - تحقيق الأستاذ حسنى زيدان - ط القاهرة . ١٩٦٥
- علم الأولياء - تحقيق الدكتور سامى نصر لطف- ط مكتبة الحرية . ١٩٨٣ م
- العلل - مخطوط دار الكتب المصرية رقم ١٢٥ .
- علل العبادات مخطوط رقم ٧٧٠ .
- غرس العارفين - مخطوط معهد المخطوطات العربية .
- غور الأمور - مخطوط المكتبة الأهلية بباريس ٥٠١٨ .
- الفروق ومنع الترادف - مخطوط بباريس رقم ٥٠١٨ .
- فى خلق هذا الأدمى - مخطوط بمعهد المخطوطات رقم ١٥٤ .
- كيفية السلوك إلى رب العالمين - مخطوط رقم ٢٥٣ بخزانة تطوان المغرب .
- مكر النفس - تحقيق الدكتور بركة ضمن كتاب فى التصوف والأخلاق: دراسات ونصوص .
- منازل القربة - مخطوط دار الكتب رقم ٧٧٠ .
- منازل العباد من العبادة - تحقيق الدكتور أحمد السايح - ط المكتب الثقافى ١٩٨٩ م .
- المنهيات
- تحقيق أبو هاجر محمد السعيد بن بسيونى زغلول - ط دار الكتب

العلمية بيروت ١٤٠٤هـ

- المنهيات تحقيق محمد عثمان الحشت - ط مكتبة القرآن بمصر

. ١٩٨٦

- نواذر الأصول في معرفة أحاديث الرسول - تحقيق الدكتور أحمد

السايع والدكتور السيد الجبيل .

- الحكيم : الدكتورة سعاد الحكيم

- المعجم الصوفي - ط المؤسسة الجامعية بيروت

. ١٠٤١هـ

- حلمي : الدكتور محمد مصطفى حلمي .

- الحياة الروحية في الإسلام - ط الهيئة المصرية العامة

للكتاب ١٩٨٤ .

- الحميدى : الحافظ أبو بكر عبد الله الحميدى

- المسند - الطبعة الأولى-نشر المحلى الأعلى بالهند .

الخراز : الطريق إلى الله أو كتاب الصدق - تحقيق الدكتور

عبد الحليم محمود-ط دار الكتب الحديثة ١٩٧٥ م .

- الخطيب البغدادي: الحافظ أبو بكر أحمد بن علي بن

ثابت ٤٦٣هـ

- الكفاية في علم الرواية - ط دار الكتب الحديثة .

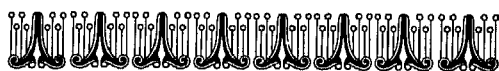
- تاريخ بغداد - ط الخانجي ١٣٤٩هـ .

- الخطيب : الأستاذ عبد الكريم الخطيب

- نشأة التصوف - ط مؤسسة الشرق للطباعة  
١٣٨٠هـ . ط دار المعارف ١٩٧٧ .
- النووى : محيى الدين النووى الشافعى  
- الأذكار  
ط الحلبي ١٣٤٨هـ .
- رياض الصالحين  
ط القاهرة .
- الهجسويرى : على بن عثمان الجلابى الغزنوى توفى، سنة  
٤٦٩هـ
- كشف المحجوب - تحقيق الدكتورة إسعاد قنديل - ط  
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .
- الهروى : أبو إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصارى  
- منازل السائرين إلى الحق عز شأنه - ط الحلبي بالقاهرة  
١٣٨١هـ . - هلال : الاستاذ محمد أمين هلال
- منهج التصوف الإسلامى فى تربية النفس - ط المجلس  
الأعلى للشئون الإسلامية ١٣٨٢هـ .
- الهندى : العلامة علال الدين على المنفى بن حسام الدين  
الهندى البرهان فورى ٩٧٥هـ .
- كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال - ط مؤسسة الرسالة  
١٣٩٩ .

- الهيثمي : الحافظ نور الدين علي بن أبي بكر ٨٠٧هـ
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد - ط دار الكتاب العربي
- مورد الظمان إلى زوائد ابن حبان- ط السلفية .
- اليافعي : أبو عبد الله اليافعي
- نشر المحاسن الغالية - ط الحلبي .

\* \* \*





الصفحة	الفهرس
٧	المقدمة
١١	أدب النفس
٣٤	رياضة النفس
٣٥	اليقين
٥٢	صفة القلب
٧١	صفة الموقن
١٠٤	النصرة
١٠٧	المجاهدة
١١٤	الهوى
٧	ثمرة الهوى
١	المصادر والمراجع

رقم الإيداع

٩٢/٧٨٣٨

I.S.B.N

977-270-078-2

تجهيزات أوفست

**جهاد**

٢٢ شارع سنان - الزيتون - القاهرة .

طبع بالمطبعة الفنية ت ٣٩١١٨٦٢



## هذا الكتاب

إنَّ أدب النفس ضرورى لِمَن أراد أن يتحلَّى بمكارم الأخلاق  
- بأخلاق القرآن الكريم ، والتأسَّى برسول الله صلى الله عليه  
وسلم .

وهذا الكتاب دعوة إلى تهذيب النفس الإنسانية وإصلاح  
شأنها ، والغروج بها إلى مراقي الفلاح ، وقد عالج فيه « الحكيم  
الترمذى » قضايا النفس الإنسانية ، وتتبَّع كل شىء فيها تتبَّع العالم  
الخبير بأخصَّ خصائصها .

إنه كتاب نفيس ، يسر الدار المصرية اللبنانية أن تقدمه  
للقارئ المسلم فى الوطن العربى والعالم الإسلامى .

الناشر



طاعة • نشر • ترويج

١٦ شارع عبدالحق كروت - بئر - ٣٩٢٣٥٢٥ - ٣٩٢٣٧١٣ - ٣٩٠٩٦١٨ - بئر - دار شادو - ص ب ٢٠٢٢ - القاهرة

AL-DAR AL MASRIAH AL LUBNANIAH

26 AND 11 KHATEK SARWAT St. P.O. Box 2022 Cairo Egypt PHONE 3936743 3923525 FAX 3909618 CABLE DAKSHADO

PRINTING — PUBLISHING — DISTRIBUTION